من الدراسات النقدية

الموازنة بين طرفة بن العبد وكعب بن زهير فى وصف الناقة

دكتـــور
عبد الحميد الضوى لبيب

" أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت "

(الغاشية : ١٧)

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

" لا تسبوا الإبل فإنها رقوء الدم "

رواه البخارى

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره

بعوجاء مر قال تروح وتغتدى

(طرفه)

أمســـت سعاد بأرض لا يبلغها

إلا العتاق النجيبات المراسيل

(كعب)

تمهيد :

عاش العربى فى جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنـــواء والريـــاح ، وتشتد عليها الطبيعة وتقسو ، فكان ينتقل فى سبيل العيش ، ويضـــرب الأرض وراء اللقمة ، فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة كأنه فى ركب الحياة علـــى سفينة تتقاذفه فتعلو به وتهبط . فيلقى مصاعبها ومتاعبها إلى أن يرسو بـــه القـــدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حينا من زمن.

وكان سبيله إلى هذا التنقل حيوان يقسم معه هذا العيش الشديد يقطع عليه المسافة فيرافقه ويعايشه ، ويقضى معه أكثر حياته فيألفه ويحبه ، ويرى فيه أعظم صديق وأنبل رفيق ، يحمل معه التعب والعناء والسير والسرى ، وقد وجد ضالته هذه فى الناقة ، فالناقة تنيخ بإناخته وتنهض إلى غايته ، تسير كما يريد فى إرقال أو خد ، تؤنس وتخفف وحدته ، فيغنيها وينشدها إذا أتيح له أن يغنى أو ينشد ، فالحيوان يتأثر بالموسيقى والحداء .

ولقد أحب الجاهلى الناقة حبا جما لأنها تغذية بلبنها ، وتكسوه من وبرها وتطعمه من لحمها ، فهى عنده غذاء وكساء ، وهى حياته فى هذه الصحراء .

من أجل ذلك انغمرت القصيدة الجاهلية بفيضان وصف الناقة حتى خيل إلينا أنها شغلت جزءاً رئيسيا فى هذه القصيدة ، وقد أسرف بعض الشعراء فى وصفها بفيض لا ينضب ، فأوحت لنا أن الشعر العربى معظمه فى وصف الناقة.[1]

ولقد جاء هذا البحث ليلقى الضوء على عالم " النوق" ويبين أهم الميزات التى اختصت بها الناقة ، ويدلل على قدرة الخالق المصور: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت).

ولقد قمنا بعقد موازنة بين شاعرين وصفا الناقة فى أبيات ، ولعل اختيارنا لهذين الشاعرين دون غيرها من الشعراء الكثيرين الذين وصفوا الناقة قبلهما وبعدهما ، لما تمتاز به هاتين القصيدتين من شهرة واسعة بين أشباههما فى غرضهما ، ولم تأت شهرتهما من مجرد اندراجهما تحت هذا الباب فقط ؛ بل لأنهما – من عيون الشعر العربى .

ولقد وظف الشاعران الناقة لتحمل عنهما شتى انفعالاتهما الحسيّة ، والنفسيّة .. فكانت الناقة – عند كل منهما – العاصرة التى تختزن كل آماله وآلامه، وتمتص كل همومه وظلا تنسخ أحزانه ، كما كانت المطية التى يشرف من خلالها على وجوده ...

---

[1] قال ابن رشيق "إن الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف "

ولقد وازنّا الشاعرين فى صحة نسبة الأبيات إلـــى كـــل منـــهما .. وآراء النقاد المحدثين فيها ، وبينّا أوجه الاتفاق والاختلاف بينها ، وطريقة الوصـــف عنـــد كل منهما والغرض الذى استخدم كل منها الناقة لأجله ....

وأعقبت هذه الموازنة موازنة بالمعايير النقدية الحديثة ، فتحدثت عن الحالـة النفسية لدى كل منهما وعلاقة الناقة بهذه الحالة ، والمعانى والأساليب،والموســـيقى والخيال ...

ولعل هذه الموازنة هى إطلالة على التّراث ، وما أحوجنا – اليـــوم – إلـــى إعادة ظهور هذا التراث وسبكه فى أوان زجاجيّة بدلا من الأقداح الأثريـــة ، وليـــس ذلك تمرداً على اللغة أو النقد والتراث وإنما هو تحســـس لمعـــالم الجـــدة والجمـــال ومواطنهما ، وتجديد لمواطن الجمال

– فى الوصف والتصوير – الذى تتوق له كل نفس فى أيامنا المعـــاصرة ، والتـــى شغفت بالتصوير اللا متناهى ، والذى انعكس على العلم والفن والأدب على حـــد سواء. والله يهدى إلى سواء السبيل .

د/ عبد الحميد الضوى لبيب على

الفصل الأول

أولاً: الإبـــل:-

١-قيمة الإبل .

٢-التعريف بالإبل .

٣-أسماء الإبل من ولادتها .

٤-أسماء ما يركب منها .

٥-أنواع الإبل .

٦-ألوان الإبل.

٧-ذكر طبائع الإبل وعادات العرب فيها .

٨-ذكر الأمثال التى ضربت فى الإبل عامة وفى الناقة خاصة .

٩-تأويل رؤية الإبل فى المنام .

١٠-إبل الرسول صلى الله عليه وسلم

ثانيا : الناقة :-

١-التعريف بالناقة . ٢-كنية الناقة .

٣-الناقة أية صالح لقومه ثمود .

٤-صورة الناقة فى الشعر الجاهلى :

أ-ناقة الأسفار ب-ناقة القرى ج-الناقة الثانية

٥-صورة أخرى تأتى خلف صورة الناقة لحيوانات تشبه الناقة

أ- الثور الوحشى ب-حمار الوحش ج-النعام

أولاً . . . الإبـل

١- قيمة الإبل للعربى :

الإبل من الحيوانات العجيبة فهو حيوان ضخم الجسم سريع الانقياد يحمل الأثقال قال[١] تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) . وهى سفينة الصحراء وموكبه إلى المراعى فى الجزيرة العربية ورحلاته إلى الملوك والعظماء لنيل أن عطياتهم . تصبر على الجوع والعطش وتحمله إلى الأماكن الخصبة والمياه الوفيرة. فهى طعامه إذا جاع وماؤه إذا عطش وقد قيل فيها: إن الله تعالى لم يخلق نعما خير من الإبل إن حملت أثقلت وإن سارت أبعدت وإن حلبت أروت وإن نحرت أشبعت.

والإبل من منن الله على خلقة وممن منحهم به من رزقه قال تعالى: (والإنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيه جمال حين تريحون

---

[١] سورة الغاشية الآية رقم (٧)

وحين تسرحون ، وتحمل أثقالهم إلى بلد لم تكونوا بالغية إلا شق الأنفس إن ربكم لرؤف رحيم) وقوله تعالى: (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لهم مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنه يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) . وعن عروة الباقى – ﷺ –أن النبى – ﷺ – قال [١] (الإبل عز لأهلها والغنم بركه والخير معقود فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة) .

فهى جديرة بأن يصفها الشعراء ويتباهون بها أمام الملوك والعظماء ، فيبرع فى وصفها على كل حالة هى عليها ، فيصف أجزاء جسمها ويصفها فى مرعاها وطريقة رعيها ويصفها فى سفرها .

٢. التعريف بالإبل :

الإبل[٢] : جمع لا واحد لها من لفظها ، والذكر منها جمل والأنثى ناقة . ويقال للذكر والأنثى بعير إذا أجذع ، ويجمع على أبعرة وبعر ، أحد الشعراء :

لا نشتهى لبن البعير وعندنا عرق الزجاج وأكف المعاصر

يقول ابن سيدة [٣] (الإبل بكسر الباء وقد تسكن هي الجمال وهى اسم واحد يقع على الجمع وليس بجمع إنما يدل على الجنس) .

أما الجوهرى فيقول [٤] ليس لها واحد من لفظها وهى مؤنثة فالتأنيث لازم وإذا صغرتها أدخلت عليها الهاء فتقول ابيلة ، ويقال إبل بإسكان الباء والجمع آبال والنسب إبلى بفتح الباء).

أسماء الإبل من ولادتها [٥] :

١ – سليل : حين يسل من أمه قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى .

---

[١] رواه ابن ماجة فى المقدمة وأبو داوود فى الفرائض.
[٢] نهاية الأرب للنويرى ١٠ / ١٠٣
[٣] حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١/ ٢٦ ط . دار إحياء التراث العربى بيروت.
[٤] حياة الحيوان الكبرى للدميرى ٢٦/١.
[٥] بتصريف نهاية الأرب للنويرى ١٠/ ١٠٤

٢- سقب : بعد وضعه إذا علم أذكر هو أو أنثى .

٣- حوار : إلى أن يتم سنة ويقال إلى أن يفطم وجمعه أحوارة وحيران .

٤- فيصل : إذا فصل عن أمه .

٥- ابن مخاض : فى السنة الثانية لأن أمه تلقح بالمخاض وهى الحامل .

٦- ابن لبون : فى السنة الثالثة والأنثى بنت لبون لأن إلام صارت ذات لبن .

٧- حق : فى السنة الرابعة ولأنه استحق أن يحمل علية .

٨- جذع: فى السنة الخامسة .

٩- ثنى : فى السنة السادسة لأنة يلقى ثنيته .

١٠- رباع : فى السنة السابعة .

١١- سديس : فى السنة الثامنة وسدس للذكر والأنثى .[١]

١٢- بازل : فى السنة التاسعة إذا طلع نابه ، يقول الشاعر :

وابن اللبون إذا مالز فى قرن لم يستطع صوله البزل القناعيس

وبعد ذلك مخلف عام وبأزل عام ثم مخلف عامين وبازل عامين ثم يصير هرما وماجا [٢]، ويقال القلوص وهى أول ما يركب من أناث الإبل إلى أن تثنى فإذا اثنت فهى ناقة ، والقعود أول ما يركب من ذكور الإبل فإذا أثنى فهو جمل ، كما يقال بكر وهو الفتى وبكره للأنثى ويقال جمل راش وناقة راشة إذا كثر الشعر فى آذانهما .

---

[١] المؤنث فى جميع الاسنان بالهاء إلا السدس والسديس والبازل والمخلف .

[٢] الذى سال لعابة من الكبر .

٤- أسماء ما يركب منها [١] :

١- المطية : اسم جامع لكل ما يمتطى من الإبل .

٢- راحلة : إذا اختارها الرجل لمركبه ولتمام خلقها ونجابتها .

٣- زامله : هى التى يستعين بها صاحبها ويحمل عليها .

٤- علية : إذا وجهها مع قوم ليمتازوا عليها

أنواع الإبل [٢] :

١- **الإرحابيه** : إبل منسوبة إلى بنى أرحب من همدان ، وقيل إنها من إبل اليمن قال فى ذلك .

ابن دريد :

أسد خفية وأسد خفان وهما أجمتان من العذب على ليلة [٣]

٢- **الشذقية** : إبل منسوبة إلى شذقم وهو فحل كريم كان للنعمان بن المنذر[٤] .

٣- **العيدية** : إبل منسوبة إلى بنى العيد وهم فخذ من بنى مهرة .

٤- **والإبل العسجدية والعبدية والعمانية** وهى إبل ضربت فى الوحوش ، والإبل الشذقمية والجديلية وهى إبل تنسب إلى شذقم وجديل وهما فحلان مشهوران.[٥]

---

[١] نهاية الأرب للنويرى ١٠/ ١٠٥

[٢] بتصرف من حياة الحيوان الكبرى ١/ ٢٨ .

[٣] العمدة لا بن رشيق القيرواتى ج ٢ / ٢٣٠٤- .

[٤] المرجع السابق ج٢/ ٣٣١ .

[٥] العمدة لابن رشيق ج٢ / ٢٣٣ .

٥-**المجدية** : إبل باليمن منسوبة إبل المجد وهو الشر .

٥- **الشذية** : إبل منسوبة إلى فحل أو بلد .

٦- **المهرية** : إبل منسوبة إلى مهرة بن حيران أو قبيلة والجمع المهارى ، وقال الغزالى إن المهرية هى من الإبل .

٧- **إبل الوحش** : يقال إنها بقايا إبل عاد وثمود ومن أهلك من العرب .

٨- **الإبل العصفورية** وداعر ، وشاعر ، وذا الكلبين فحول إبل النعمان بن المنذر ، وعصافير النعمان أولاد عصفور الفحل وهو أكرم فحل للعرب فيما يزعمون ، ومنها القسى العصفورية : منسوبة إلى رجل يسمى عصفورا ، وأشد لابن البشير .

عطف السيات بواقع فى بلذلها تعزى إذا نسبت إلى عصفور[١]

٦- ألوان الإبل [٢] :

١- أحمر : إذا لم يخالط حمرة البعير شىء.

٢-أرمك : خالط حمرته سواد .

٣-أورق : إذا كان أسود يخالط سواده بياض .

٤-جون : إذا اشتد سواده .

٥-آدم : إذا كان ابيض .

٦-أصهب : إذا خالط بياضة حمرة .

٧-اعيس : إذا خالط بياضة شقرة .

٨-احوى : إذا خالطت خضرته صفرة وسواد.

---

[١] المرجع السابق ج٢/٢٣٣

[٢] نهاية الأرب ١٠/١٠٨ للنويرى

٩-أكلف : إذا كان أحمر يخالطها سواد.

٧- ذكر طبائع الإبل وعادات العرب فيها :[1]

عند هيجان الجمل يسوء خلقة ويظهر زبده ورغائه ولو حمل عليه ثلاثة أضعاف ما يحمل عليه لحملة ، ويقل أكله والجمل لا ينزو إلا مرة واحدة يطول وكثه فيها وينزل مرارا وفى حالة نزوه يخلو فى البرارى لا يقترب منه إلا صاحبه ، والأنثى تحمل سنة كاملة .

وتلقح لمضى ثلاث سنوات ولا ينزو عليها إلا بعد سنة من وضعها . والجمل لا ينزو على أمه ولا أخته ويحقد على من يلزمه على ذلك وربما قتله ، فقد ذكر أن رجلا ستر ناقة بثوب ثم أرسل إليها ولدها فلما عرف ذلك حقد على الرجل فقتله ، وقصة أخرى تقول إن الجمل قتل نفسه . وليس فى الحيوان من يحقد كحقد الجمل ، وقد قيل إن العرب اكتسبت الأحقاد لأكلها لحوم الجمال .

ومن طباعها الاهتداء بالنجم ومعرفة الطرق والغيرة والصولة ، والصبر على الأحمال الثقيلة والعطش ، والإبل تميل إلى شرب المياه الراكدة ، فإذا وردت المياه الراكدة تحركها بأرجلها حتى تتكدر ، وتعرف النبات المسموم من الشم أو برؤية العين ، - أيضاً - تصر اذانها إذا حدا فى آثارها الحادى وتزداد نشاطا وتزيد فى مشيها .

ومن عادات العرب إذا أصاب إبلهم الجرب كووا السليم ليذهب الجرب عن المريض ، وإذا كثرت إبلهم وبلغت ألف فقؤا عين الفحل فإذا زادت عن الألف فقؤا العين الأخرى ويقول النابغة فى ذلك :

---

[1] بتصرف من حياة الحيوان ٢٩/١ ونهاية الأرب ١٠ /١٠٨ والحيوان للجاحظ .

فقأت لها عين الفحيل عيافة وفيهن علاء المسامع والحامى [١]

كذلك غرز الريش والخرق فى سنام البعير لتفزع الغربان ، وقد توضع لغير ذلك فالملوك كانت تجعل الريش علامة لحياء الملك تحميها بذلك وتشوف صاحبها .

٨- ذكر الأمثال التى ضربت فى الإبل والناقة خاصة: [٢]

١- عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - أن الرسول - صلى الله علية وسلم - قال (الناس كإبل مائل ليس فيها راحلة) رواه الترمذى ومسلم .

قال الزهرى: معناه أن الزاهد فى الدنيا الكامل فى الزهد فيها والرغبة فى الآخرة قليل ، وقال البيهقى هذا الحديث يتأول على أن الناس فى أحكام الدين سواء لا فضل لشريف على ضعيف كالإبل المائة لا يكون فيها راحلة وهى التى تركب .

٢- قال بن كعب بن زهير (أشبعهم سبا وراحوا بالإبل) يضرب لمن يكن عنده إلا الكلام .

٣- وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - (ما هكذا يا سعد تورد الإبل)

يضرب لمن تكلف أمرا لا يحسنه .

٤- ويقال (يا إبل عودى إلى مباركك) يضرب لمن حصل الشىء الذى لا بد منه .

٥- ويقال (لا ناقتى فيها ولا جملى) ويضرب عند التبرى من الظلم والإساءة وممن أنشد به الراعى فى قوله :

---

[١] الحيوان ٤/

[٢] بتصرف من حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١/٢٩ و ٢/٤٥٩

وما هجرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لى فى هذا ولا جمل

٦-قال طرفة (استنوق الجمل) ويضرب للرجل الذى يكون فى حديث أو وصفه شىء ثم يخلطه بغيره .

٩-تأويل رؤية الإبل فى المنام: [١]

١- إذا رأى أنه ملك مائة من الإبل فإنه يدل على أنه يحكم جماعة وملك مالا طائلاً .

٢- إذا رأى أنه ملك إبلا فى منامه نال عقبى حسنة فى دينه قال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت).

٣- إذا رأى أنه جملاً ربما يدل على الأعمال السيئة لقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

٤- إذا رأى أنه يسرح بأنعام فى المنام يدل على تذليل الأمور الصعاب وظهور النعمة علية لقوله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون). والناقة فى الرؤيا امرأة وركوب الناقة فى المنام نكاح امرأة .

٥- إذا رأى كأنه حلب ناقة تزوج امرأة صالحة ، ومن كان متزوج وحلب ناقة رزقه الله ولدا ، ومن حلب النوق فى منامة يلى ولاية يجمع فيها الزكاة ، وقد جاء رجل إلى ابن سرين فقال له : رأيت رجلا يحلب النوق البخت لبنا ثم حلبها دما فقال له (هذا الرجل يتولى على الأعاجم ويجبيهم الزكاة وهى اللبن ثم يظلمهم ويأخذ أموالهم وهى الدم) .

٦- إذا رأى أنه ركب ناقة مهريه فى منامه سافر وقطع عليه الطريق .

٧- إذا رأى ناقة صارت بغلة فإن زوجته لا تحمل أبداً ، ومن ماتت ناقته ماتت زوجته .

---

[١] نقل بتصرف من حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١/٣١ و ٢/٢٦٠

٨- ناقة دخلت مدينة فإنها فتنه لقوله تعالى (إنّا مرسلوا الناقة فتنه لهم)

٩- ومن عقر ناقة ندم على أمر فعله وناله مصيبة منه لقوله تعالى (فعقروها فأصبحوا نادمين).

إبل الرسول - ﷺ [1]

كانت للرسول - صلى الله عليه وسلم - ناقة يقال لها (القصواء)من نعم بنى الحريش ، اشتراها أبو بكر الصديق وأخرى معها بثمانمائة درهم فأخذها الرسول -ﷺ- منه بأربعمائة ، وهى التى هاجر عليها الرسول -ﷺ- وكان اسمها القصواء ، الجدعاء ، العصباء ، وكانت لا تسبق كلما دفعت فى سباق .

وكان له -ﷺ- جمل أحمر بعث عليه يوم الحديبية خراش بن أمية الخزاعى قبل عثمان بن عفان إلى قريش ليبلغ أشرافهم عن سبب قدوم الرسول - ﷺ - فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش .

وكان للرسول -ﷺ- عشرون ناقة حلوب غزيرة اللبن وكان فيها نياق كثيرة الدر منها (الحناء والسمراء والعريس والسعدية والبغوم واليسيرة والريا) وقد فرقها -ﷺ- على نسائه ، وكان فيها أبو ذر فأغار عليها عينه بن حصن فى أربعين فارسا فاستاقوها ولحق بهم -ﷺ- وأصحابه فاستنقذو منها عشراً وقيل أن سلمة بن الأكوع استنقذها كلها .

وكان له -ﷺ- خمسة عشر ناقة اساقها العرنيون وقتلوا مولاه يسار ، فأرسل فى آثرهم كرز بن جابر الفهرى فى عشرين فارساً فاسترجعوها وأسروهم وقدما بهم إلى الرسول - ﷺ -فى المدينة فقطعت أيديهم وأرجلهم وفقأت أعينهم وصلبوا وفيهم نزل قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) .

---

[1] بتصرف من نهاية الأرب ١١١/١٠

وفى غزوة بدر غنم الرسول -ﷺ- جمل أبى جهل وكان مهريا يغـــزو عليـــه ويضرب فى نياقة . وعن ابن عباس (أن الرسول – ﷺ – أهـــدى عـــام الحديبيـــة هداياه جملاً لأبى جهل فى رأسه برة من فضة ليغيظ بذلك المشركين) .

وقيل كان له – ﷺ – لقحة اسمها مروه ، وقال الكلبى (إن عياض بـــن حمـــاد أهدى الرسول – ﷺ – نجيبة وكان صديقاً له إذا قدم عليه مكة لا يطـــوف إلا فـــى ثيابه فقال له – ﷺ – أسلمت ؟ قال : لا قال – ﷺ – : (إن الله نـــهانى عـــن زبـــد المشركين) فأسلم فقبلها – ﷺ – منه .

ثانياً ... الناقــة

١ـ التعريف بالناقة :ـ

الناقــة : هى الأنثى من الإبل .[١]

قال الجوهرى [٢]: الناقة تقديرها فعله بالتحريك لأنها جمعت على نوق مثل بدنه وبدون وحشبه وحشب ، وفعله بالتسكين لا تجمع على ذلك .

وقال يعقوب :[٣] عن بعض الطائيين (أنه جمعــت بقلــة أنــوق ، فلمــا استثقلوا الضمه قدموا الواو فقالوا أونق ،ثم عوضوا من الواو ياء فقــالوا أينــق ، وجمعوها على أيانق) وتجمع الناقة على نياق مثل ثمرةثمار فصــارت الــواو يــاء ،وعلى ذلك أنشد أبو زيد للقلاخ بن حزن :

أبد لكن الله من نياق إن لم تنجبن من الوثاق

٢ـ كنية الناقة : [٤]

أم بو وأم حائل وأم الثقب وأم مسعود ، ويقال لها بنت الفحل وبنت الفلاة وبنــت النحائب ، وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال كان – صلى الله عليه وســلم – يسير فى سفر فلعن رجل ناقة فقال – صلى الله عليه وسلم –: (من صــاحب هــذه الناقة فقال الرجل أنا يا رسول الله فقال أخرها فقد أجبت فيها)

٣ـ الناقة آية صالح إلي قومه ثمود :

ما أرسل الله تعالى من رسول إلى قومه إلا وأرسل معه آية لهم بما اشتهروا به تحدياً لهم ، فالعرب أرسل الله لهم محمدا –ﷺ – وأرسل معه القــرآن الــذى هــو

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ٥٣/٢
(٢) نفس المرجع ج٢ /٤٥٣
(٣) نفس المرجع ج٤٥٣/٢
(٤) نفس المرجع ج٤٥٣/٢

معجزة وتحدى المشركين الذين برعوا فى الفصاحة وتحداهم رغم فصاحتهم أن يأتوا بآية من مثله ، وموسى – عليه السلام – أرسله الله إلى فرعون وقومه الذين اشتهروا بالسحر وأرسل معه العصا التى تحدى بها السحرة كلهم فلقفت كل ما وضعوه من سحر .

أما صالحاً فقد أرسله الله إلى ثمود الذين اشتهروا بنحت الجبال وجعلها بيوتاً لهم فسألوا صالحاً أن يدعو ربه أن يخرج لهم من صخرة يقال لها الكائبة ناقة عشراء تحدياً منهم ، إلا أن الله لا يعجزه أمر فانشقت عن ناقة عظيمة كما [illegible] الوادى فى الحر والجدب ، وتشتوا ببطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد والجدب ، وكان لها شرب يوم ولهم شرب يوم فإذا كان يومهم شربوا وجمعوا ما يسد حاجتهم ، وإذا كان يومها تشرب جميع الماء وهم يشربون لبنها ، إلا أن هذا الوضع لم يعجب قوم صالح فعقر الناقة قرار بن سالف وهو عزيز ومنيع فى قومه دعته امرأة عجوز وقالت له أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة ، فكمن لها فى طريقها فلما مرت به شد عليها بالسيف وعقرها قال تعالى (فتعاطى فعقر) [1] أى قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه فضربها وقد قال الله فى ثمود (كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها)[2] .

أما تالى (ناقة الله) فهو إضافة خلق إلى خالق تشريفا وتخصيصاً .

٤- صورة الناقة [3] :

للناقة فى الشعر الجاهلى ثلاث صور رئيسية وهى :

أ – ناقة الأسفار ب – ناقة القرى ج – الناقة الثانية

---

[1] سورة البقرة آية ٢٩

[2] سورة الشمس آية ١٥

[3] الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى د.نصرت عبد الرحمن ٧٣

وفى صورة الناقة صفات [١] مأخوذة من حيوانات وهمية مثل (العنتريس والعفرانة)من أسماء الغيلان ، ومن عناصر طبيعية (العرندس) وهى السيل ، و(الجلمد والجلعد) وهى الصخرة ، و (العلنداة) وهى ضرب من الشجر ، ومن عناصر حيوانية (الشدنية) من الشادن وهى الضبى ، و(عنس) وهو العقاب ، و(عيرانة) من العير وهو حمار الوحش ، ومن عناصر حضارية (الدوسرة) وهى السفينة الضخمة .

أ – ناقة الأسفار [٢] :

نجد لناقة الأسفار صور تدل على الضخامة مثل (كهاة وجلالة وضخمة) وعلى حسن الخلقة التامة الجسم مثل (عطموس ودعبلة) وعلى طول السنام مثل (كوماء) وعلى الشديدة قوية اللحم (وجناء) فإذا ازدادت شدتها فهى (عنتريس وعرندس) فإذا كانت ضخمة شديدة فهى (دوسرة) فإذا كانت حسنة فهى (شمردلة) فإذا كانتى عظيمة الجوف فهى (مجفرة) فإذا كانت قليلة اللحم فهى (حرجوف وحروف ورهب) .

وصور تدل على الإقدام والسير مثل (خنوف) إذا كانت لينة اليدين فى السير ، فإذا كان بها هوجة من سرعتها فهى (هوجاء) فإذا كانت تقارب الخطى فهى (حائكة) فإذا كانت تمشى وكأنها مقيدة الرجل وتضرب بيديها فهى (عصوف ومشمعلة وعيهل وشملال وهمرجلة وشملة وشمردلة) فإذا كانت تجر رجليها فى المشى فهى (مزحاف وزحوف) فإذا كانت لا تقتصد فى سيرها من نشاطها فهى (عجرفية) .

وصور تدل على اللون (كميت وأدماء) وعلى السن (بأزل وسديس) وعلى الصوت (رغاء وبغام) وعلى التفائل (أمون وناجية) .

---

[١] نفس المرجع ٧٤

[٢] الصورة الفنية د. نصرت عبد الرحمن /٧٤/٧٣ ونهاية الأرب ١٠٣/١٠ وما بعدها.

وصور ترتب سير الناقة (العنق) هو السير السريع ، فإذا ارتفع عنه قليلا فهو (التزيد) ، فإذا ارتفع قليلا فهو (الذميل) ، فإذا ارتفع فهو (الرسيم) فإذا ادارك المشى وفيه مقاربة الخطوات فهو (الحفد) فإذا ارتفع وضرب بقوائمه كلها فهو (الارتباع والارتباط) فإذا لم يدع جهدا فهو (الإدرنفاق) .

ب- ناقة القرى [١]:

وهى التى تعد للذبح بطعنة من رمح فى جنبها أو بضربة سيف أو نراها أشلاء فى القدور ، ويعتز الشعراء بنياقهم (الكوم) التى يقدمونها لضيوفهم .

ج- الناقة الثانية :[٢]

وهى التى يصورها الشعراء مرتبطة بالبكاء على الطلول وهى دهماء حزم ظهرها بالقتب وأبيض خدها ولحيها من الغام وهى قوية وضخم سنامها .

وهناك صور أخرى لنياق المسير ونياق البلايا التى كن يحبسن عن الطعام قوب أجداث أربابهن حتى يبلين .

٥- صور أخرى لحيوانات تشبه الناقة :

نجد خلف صورة الناقة صوراً لحيوانات كثيرة تشبه الناقة بها ثم تستطرد إلى وصف هذه الحيوانات ومنها :

أ – الثور الوحشى [٣]:

الذى يرعى الكلأ وحيدا يلجئه المطر إلى أرطاة يلوذ بها ليلته حتى ينجلى الظلام فيسمع صائداً وكلابه ، فيصور الشعراء العراك بين الثور والكلاب الذى ينتهى بغلبة

---

[١] الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى د.نصرت عبد الرحمن ٧٧

[٢] نفس المرجع /٧٧

[٣] الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى د. نصرت عبد الرحمن ٧٧

الثور للكلاب فيشك قرنيه فى بطن الكلب ويجهز عليه ، وقد يصور البقرة الوحشية بدلاً من الثور تظهر فيه البقرة فاقدة فرقدها التى أكلته السباع .

يقول الجاحظ :[١] (من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن يكون الكلاب هى التى تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مدحاً وقال كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا وكذا أن تكون هى المقتولة ، وليس على أن ذلك حكاية عن أن ذلك حكاية عن قصة معينة ولكن الثيران ربما جرجرت الكلاب وربما قتلتها ، وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم) وكأنها كانوا يتخذون قتل الكلاب فى المديح رمزاً لإعلاء الممدوح وكانوا يشبهونهم بالكلاب .

ب- حمار الوحش : [٢]

وتبدأ الصورة بمنظر الحمار يرعى منفرداً أو معه أتان ويكون الأمر الناهى ، فيضع رأسه على من يشاء ويعض أخرى ، ثم يأتى فصل الصيف ويشتد بهما الظمأ فيبحث لهن عن الماء ويستاقهن إلى أن يصل للماء فيتقدم ليشرب منه بحذر مخافة القناص ، ثم تتقدم أتانه لتشرب هى الأخرى بعد أن أمنت .

والشعراء يجعلون الحمر الوحشية تنعم بالماء فلا يفزعونها بقناص ، وقد يدخل الشعراء عنصر المفاجئة فيضعون قناصاً قرب الماء ليتفننون فى تصوير بؤسه إذا أقبل ورماه بسهم طائش لا يصيبه إنما يفزعه لأنها متعة للشعراء .

ج – النعام [٣] :

نجد الشعراء يصورون الظليم يرعى التنوم وقد نرى معه النعامة ويذكر القيض الذى يضربه المطر ويفسده ، وعودة الظليم إلى عرصه إذ يوحى إليها بنقنقة وتجيبه هى بزمار فيه الدلال الأنثوى .

---

[١] تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى شوقى ضيف ٢١٥ الطبعة الثامنة عشرة سنة ١٩٩٥ دار المعارف

[٢] الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى ص ٧٨

[٣] الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى د.نصرت عبد الرحمن ٧٩

الفصل الثانى

التعريف بالشاعرين

أولاً : طرفة بن العبد

١- نسبه وقبيلته .
٢- نشأتـــــه .
٣- فلسفته فى الحياة .
٤- شاعـــريتـــه .
٥- مكانته الشعرية.
٦- قصـــة قتلـــه .

ثانياً : كعب بن زهير :

١- نسبـــه وقبيلتـــه .
٢- روايته الشعر وتعلمه .
٣- مكـــانتـــه الشعـــرية .
٤- قصـــة إسلامـــه .

أولاً : طرفه بن العبد البكرى

نسبه وقبيلته :-

هو عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك ، ويمتد نسبه إلى بكر بن وائل ويصل إلى ربيعه بن نزار بن معبد بن عدنان .[١]

وطرفة [٢] لقب أطلق عليه لبيب قاله ، وهى واحدة الطرفاء (ضرب من شجر) [٣] وقد غلب لقبه على اسمه حتى كاد ينسى اسمه ، ويكنى بابن العشرين كما يكنـــى

---

[١] انظر ترجمته فى :
* الأعلام للزركلى ج٣/٢٢٥ * ديوان طرفة ص١١
• شعراء النصرانية للأب لويس شيخوج/ * المعلقات السبع ص٥٧
• الشعر والشعراء ج١٠/١٨٥ * شرح المعلقات لابن الأنبارى ص١١٥/١٢٩
• دائرة المعارف الإسلامية ج/١٥/١٦٤، ١٦٨.

[٢] ذكر الآمدى فى (المؤتلف والمختلف) : من اسمه طرفة من الشعراء أربعة : أولهم هذا والثانى طرفة بن ألاءة بن نضلة والثالث طرفة الجذمى أحد بنى جزيمة العبسى . والرابع طرفة أخـــو بـــنى عـــامر بـــن ربيعـــه (ص٤١٧ ج١: الخزانة)

[٣] جاء فى دائرة المعارف الإسلام ج١٥ /١٦٤ أن هذه التراجم التى ذكرت لطرفة فيها

الفصل الثانى

التعريف بالشاعرين

أولاً : طرفة بن العبد

١- نسبه وقبيلته .

٢- نشأتـــــه .

٣- فلسفته فى الحياة .

٤- شاعـــريتـــه .

٥- مكانته الشعرية.

٦- قصـــة قتلـــه .

ثانياً : كعب بن زهير :

١- نسبـــــه وقبيلتـــــه .

٢- روايته الشعر وتعلمه .

٣- مكـــانتـــه الشعـــرية .

٤- قصـــــة إسلامـــــه .

أولاً : طرفه بن العبد البكرى

نسبه وقبيلته :-

هو عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك ، ويمتد نسبه إلى بكر بن وائل ويصل إلى ربيعه بن نزار بن معبد بن عدنان .[١]

وطرفة [٢] لقب أطلق عليه لبيب قاله ، وهى واحدة الطرفاء (ضرب من شجر) [٣] وقد غلب لقبه على اسمه حتى كاد ينسى اسمه ، ويكنى بابن العشرين كما يكنـــى

---

(١) انظر ترجمته فى :

* الأعلام للزركلى ج٣/٢٢٥ * ديوان طرفة ص١١

• شعراء النصرانية للأب لويس شيخوج/ * المعلقات السبع ص٥٧

• الشعر والشعراء ج١٠/١٨٥ * شرح المعلقات لابن الأنبارى ص١١٥/١٢٩

• دائرة المعارف الإسلامية ج/١٥/١٦٤، ١٦٨.

(٢) ذكر الآمدى فى (المؤتلف والمختلف) : من اسمه طرفة من الشعراء أربعة : أولهم هذا والثانى طرفة بن ألاءة بن نضلة والثالث طرفة الجذمى أحد بنى جزيمة العبسى . والرابع طرفة أخـــو بـــنى عـــامر بـــن ربيعـــه (ص٤١٧ ج١: الخزانة)

(٣) جاء فى دائرة المعارف الإسلام ج١٥ /١٦٤ أن هذه التراجم التى ذكرت لطرفة فيها

– أيضاً – بالفتى القتيل ؛ لأنه لم يعمر ، فقد قتله عامل عمرو بن هند على البحرين .

نشأته :-

نشأته طرفة بن العبد بين منازل قبيلة ، التى فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية ، فى البحرين واليمامة ، وقد كانت هذه المنطقة هى موطن الشعراء العرب الأولين .

وكان طرفة ذا حسب كريم ومكانة رفيعة فى قومه ، صحب ذلك نبوغ مبك فزاده اعتزازاً بنفسه ، فتجرأ على هجاء قومه وغيرهم ، فقد مات أبوه وهو صغير فكلفه أعمامه فأساؤا تربيته ، ولم يكتف أعمامه بذلك بل إنهم احتجزوا ماله فثار عليهم وهددهم فى قوله :-

ما تنظرون بحق وردة فيكم ... صغر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره ... حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم فرق بين حيى وائل ... بكر تساقيها المنايا تغلب[1]

ونجد أثر الظلم الذى وقع عليه من أعمامه فى تلك الحكمة التى قالها فى معلقته:[2]

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء من الحسام المهند

ويبلغ أثر الظلم الذى وقع عليه من أعمامه إلى إنكاره للصداقة ، ونظرة متشائمة إلى الناس حين قال[3].

كل خليل كنت قد خالته ... لا ترك الله له واضحة

= إسراف زائد ؛ والحق أن هذه التراجم استمد معظمها من شعره .

(١) ديوان طرفة ص١١

(٢) المرجع السابقص٣٦

(٣) الطليعة الأدبية (مجلة) خواطر فى الحياة والموت – مختارات من معلقة طرفة – د.ياسين الأيوبى ص٦، العدد الثانى – السنة الثالثة شباط ١٩٧٧ – بغداد

كلـــهم أروغ مـــــن ثعلـــــب مـــا أشـــبه الليلـــة بالبارحـــــة

لقد كان طرفة جريئاً على هجاء قومه ، وكذا هجاء غيرهم ، ولا يعـــرف مـــن تاريخ نشأته إلا القليل مما لا يتهيأ به الحكم على مبلغ تأثير نشأته فى شعره ، غـــير أن جملة ما يؤخذ من ذلك أنه كان أبياً معتزاً بنفسه ، ومدللاً على قومـــــه ، واثقـــا بمنزلته منهم ، جريئاً بمقدار ما تدفع هذه الثقة مترفعاً إلا عن الملـــــوك ، يرجوهـــم ويهجوهم ؛ فهو يذهب إليهم بنفسه ولكنه يمثل لديهم وكأن فى برديه حاشيتى قومه.

٣ـ فلسفته فى الحياة :

لقد عبر طرفة عن مشاعره بجرأة قوية ، وبوضوح هما من مميزات الفلســـــفة الوجودية – المعاصرة – كما عبّر عما يريده بصـــورة مباشـــرة دون مـــا لبـــس أو مواربة .

وفى اعتقادى أن طرفة لم يكن فيلسوفاً على الإطلاق ، ولكـــن هـــذا لا يمنـــع أن يوفق المرء أحياناً فى صوغ أفكاره والتعبير عنها بمنطق يشـــبه منطـــق الآخريـــن ويدخل فى نطاق ، وإن بعد ما بين الاثنين فى الزمان والمكان ، خاصة وأن الأفكـــار ليست وقفاً على زمان دون آخر أو مكان دون غيره .

بيد أن الذى يعرضه طرفة فى قصيدته هو عبارة عن منهج خاص فى الحياة يفسر عن طريق هذا المنهج تلك الحياة التى كان يحياها ، والتى لم تكن حيـــاة جـــد مظلم ولا حياة لهو مفسد للنفس ، وإنما كانت مزاجاً معتدلاً من الجد واللهو ، ومـــن العمل والفراغ ، كانت مقسومة قسمة عادلة بين ما ينبغى لقومه ، وما ينبغى لنفســـه من الحق عليه ، وكانت مع هذا كله حياة واضحة كل الوضوح .

٤ـ شاعريته :

نشأ طرفة فى بيئة شاعرة ، فالمتلمس خاله ، وابن عمه عبد عمرو شـــاعر ، وأخته الخرنق شاعرة ، وعم أبية المرقش الأكبر ، وعمه المرقـــش الأصغـــر ، – أيضا – لقد امتازت هذه القبيلة بكر بن وائل بكثير من الشعراء النوابغ أمثال الحارث

بن حلزة ، وسويد أبى كاهل (انظر الجدول) .. فطرفة نشـــأ محاطـــاً بالشـــعراء والفحول مما أعان على موهبته على التفتح فى وقت مبكر .

بكر بن وائل

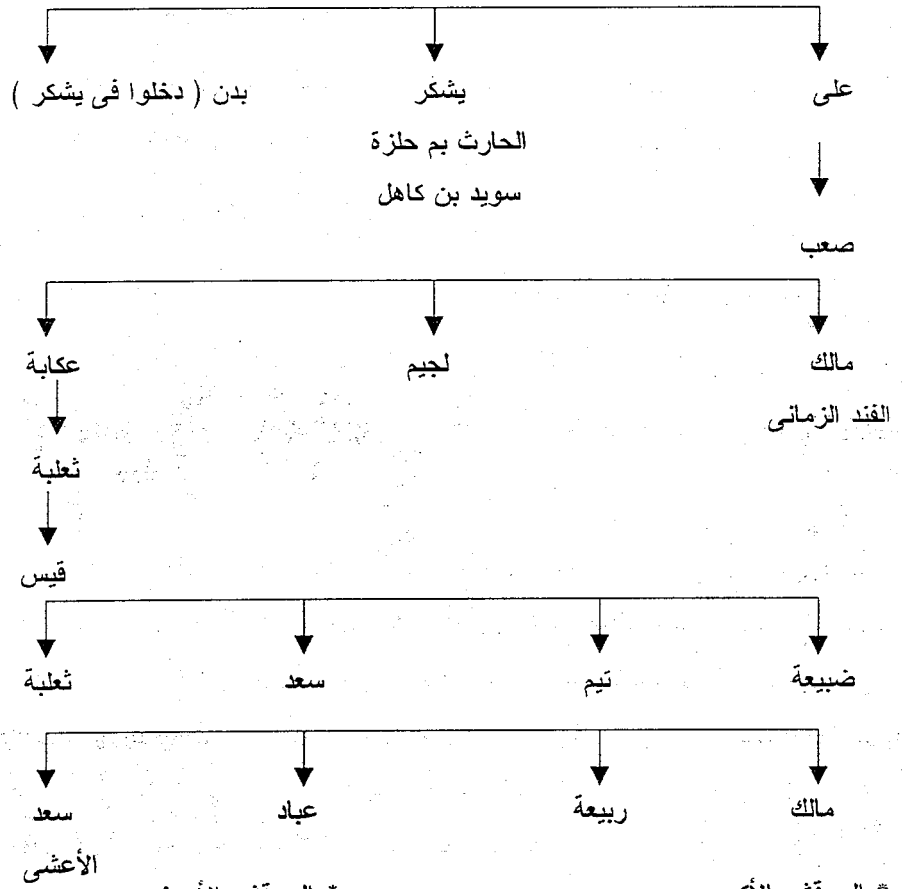

* المرقش الأكبر .
* طرفة بن العبد .
* أخته الحزنق .
* عمرو بن قبيئة
* المرقش الأصغر .
* أخوه معبد.
* عمرو بن مرثد .

١ـ مكانته الشعرية :

ومعلقة طرفة تبشر بعبقرية مبدعة لو أن الحياة امتدت به ، ولقد فضلها الرواة والأدباء على غيرها لما فيها من حكم وآراء فى الحياة والموت . فابن قتيبة يقـــول "

إنه أشعر الناس طويلة [١] " وابن رشيق يقول : " أنه أفضل الناس واحدة عند العلماء " وقد وضعه ابن سلام فى الطبقة الرابعة من طبقات فحول الشعراء الجاهلين مع عبيد الأبرص ، وعلقمة الفحل وعدى بن زيد ، وذلك لقمة ما بأيدى الرواة من شعره ، واعتبر معلقة طرفة أجودهن فقال : " أما طرفة فأشعر الناس واحدة " يعنى بذلك المعلقة التى مطلعها :

لخوله أطلال ببرقد ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وتليها مثلها التى مطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستقر[٢]

وقد سئل لبيد بن ربيعه : من أشعر العرب ؟ فقال الملك الضليل قالوا : ثم من ؟قال : ابن العشرين يعنى طرفة ، قالوا : ثم من ؟ قال صاحب المحجن – يعنى نفسه–[٣].

ولعلهم جعلوا مرتبته تالية لا مرىء القيس ، لنهم نظروا إلى مرتبته قصيدته فى الطوال على الترتيب المشهور ؛ وإلا فامرؤ القيس مختلف فى تقديمه عندهم ، وقد أورد صاحب " الجمهرة " قصيدة طرفة آخر السبع ، فقدمهم عليهم جميعا ، وهو على رأى " المفضل " من أن أصحاب السبع هم " أمرؤ القيس ، وزهير والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة ، ولما كانت مثل هذه الأقوال المتضاربة لا تعدو الآراء المرتجلة التى لا ثبت لها ، فقد اخترنا إهمالها ، لأن الرأى لا يزال يعارضه مثله إلى أن ينقطع عند البرهان[٤].

---

[١] الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١/١١١

[٢] طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج١/١٣٨

[٣] بتصرف : الشعر والشعراء ج١/١٩٦

[٤] تاريخ آداب العرب ج١/١٠٣ مصطفى صادق الرافعى؛ مكتبة الإيمان بالمنصورة ،الطبعة الأولى ١٨١٤ د – ١٩٩٧ م

وأما تقديمهم لطرفة على غيرة من فحول الشعراء ، فلأن طرفة خبّ وركض بسنيه القليلة فى مثل الأعمار الطوال .

٥- قصة قتله :

وفى سبب قتله أقوال متقابلة ، أمثلها ما رواه يعقوب بن السكيت فى شرح ديوانه ، قال [١] : إن طرفة لما هجا عمرو بن هند بأبيه التى أولها :

قليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثاً[٢] حول قبتنا تخور
لعمرك إن قابوس بن هند ... ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر فى زمن رخى ... كذلك الحكم يقصد أو يجور

وأما سبب نظمه لهذه الأبيات فهو اجتماع ابن عم طرفة عبد عمر مع الملك عمرو ابن هند فجمع حطباً ثم أشعلها ، فقال لهم الملك أو قدوا ، فأوقدوا نارا وشوى فبينما عمرو يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم إليه ، إذ نظر إلى خصر قميصه منخرقاً فأبصر كشحه وكان من أحسن أهله زمانه جسماً ، وقد كان بينه وبين طرفة أمر وقع بينهما منه شر ، قيل : أن سببه هو أخت طرفة كانت تشكو زوجها وابن عمها عبد عمرو لأخيها وكان سيداً فى قومه فيهجوه طرفة بأبيات[٣] فقال له عمرو بن هند ، وكان سمع تلك الأبيات : يا عبد عمرو لقد أبصر طرفة حسن كشحك ، ثم تمثل فقال :

ولا خير فيه غير أن له غنى ... وأن له كشحاً إذا قام اهضما
وأن نساء الحى يعكفن حوله ... يقلن عسيب من سراره ملهما

فغضب عبد عمرو مما قاله وأنف فقال : لقد قال للملك أقبح من هذا : قال عمرو : وما الذى قال ؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يسمعه ، فقال : أسمعه وطرفة

---

[١] ذكر البغدادى فى " خزانة الأدب " أن لديوان طرفة شرحاً آخر للأعلم الشنتمرى . أنظر خزانة الأدب ج١/٤١٥.

[٢] الرغوث : النعجة المرضع

[٣] قيل : أن حاشية الملك قالت له : إن قتلت طرفة هجاك المتلمس خاله ، لذلك أراد قتله معه .

آمن ، فأسمعه القصيدة التى هجاه بها .. فسكت عمرو بن هند على ما قـــرر فـــى نفسه ، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه فأضرب عنه – وبلغ ذلك طرفة – وطلـــب غرته والإستمكان منه ، حتى أمن طرفة ولم يخفه على نفسه فظن أنه قد رضى عنـه ، وقد كان المتلمس – وهو جرير بن عبد المسيح – هجا عمرو بن هند وكـــان قـد غضب عليه ، فقدم الملتمس وطرفة على عمروبن هند يتعرضان لفضله .

فأعطاهما الهدايا وأرسلهما إلى عامله على البحرين بصحيفتين ، وقال لـــهما ، انطلقا إليه فاقبضا جوائز كما – وهو يرد قتلهما – فخرجا ، فزعموا انهما لما هبطـا النجف قال الملتمس : يا طرفة إنك غلام غر حديث السن ، والملك من قـــد عرفـت حقده وغدره ، وكلانا قد هجاه ، فلست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر فلهم ننظر فـى كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسا ، فأبى طرفة أن يفك الخاتم ، وأن يجيبه إلى النظر فيها . ففك الملتمس ختمـــها ثـم جاء إلى غلام من أهل الحيرة فقال له : أتقرأ يا غلام ، فقال : نعم فأعطاه الصحيفـــة فقرأها فقال الغلام . أنت الملتمس ؟ قال : نعم ، قال : النجاء : فقد أمر بقتلك فـــأخذ الصحيفة فقذفها فى البحيرة ، ثم أنشأ يقول :

وألقيتها بالثنى من جنـــب كـــافر ... كذلـــك ألقـــى كـــل رأى مضلـــل
رضيت لها بالماء لمـــا رأيتـــها ... يجول بها التيار فى كـــل جـــدول

فقال الملتمس لطرفة تعلمن والله أن الذى فى كتابك مثل الذى فـــى كتـــابى ، فقال طرفة : لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذى يجترىء علـــى ، وأبـــى أن يطيعـــه فسار الملتمس من فوره حتى أتى الشام فقال :

من مبلغ الشعراء عن أخويـــــهم ... نبـــأ فتصدقـــهم بـــذاك الأنفـــس
أودى الذى غلق الصحيفة منـــهما ... ونجا حـــــذار حياتـــه الملتمـــس
ألقـــى صحيفـــة ونجـــت كـــوره ... وجنا محمرة المناســـم عرمـــس
عيرانة طبخ الـــــهواجر لحمـــها ... فكـــأن نقبتـــها أديـــم أملـــــس

وصار طرفة حتى وصل إلى عامل عمرو بن هند على البحريـــن ، فقتلـــه [١] ويقال أنه لما قرأ العامل الصحيفة عرض عليه فقال : اختر قتلة أقتلـــك بـــها فقـــال: اسقنى خمراً فإذا ثملت فافصد اكحلى ، ففعل حتى مات ، وذكر ذلك البحترى بقوله :

وكذاك طرفة تحين أوجس خيفـــة فى الرأس هان عليه فصد الأكحل

قال المرتضى فى (أماليه)[٢]: ويقال إن صاحب هذه القصة هو النعمان بـــن المنذر وذلك أشبه بقول طرفة :

أبا منذر كانت غـــروراً صحيفتـــى ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضـى
أبا منذر أفنيـــت فاســتبق بعضنـــا حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض

وأبو المنذر هو النعمان بن المنذر بن وكان النعمان بعد عمرو بن هنـــد ، وقـــد مدح طرفة والملتمس فى النعمان ، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكـــون القصة مع النعمان .

وقالوا إن طرفة نطق بهذين البيتين (أبا منذر...) لما أيقـــن بـــالموت ، وقـــد عدوه بهما فيمن شعره فى رويته وبديهته سواء عنـــد الأمـــن والخـــوف ، لقدرتـــه وسكون جأشه وقوة عزيزته كهدبة بن الخشرم ومرة بن محكان السورى. [٣]

وهناك رواية أخرى تقول : أن طرفة كان ينادم عمرو بن هند فى مجلسه أقبلت أخت عمرو بن هند فرأى ظلها بالكأس الذى يشرب به فأنشد قوله :

ألا يـــا ثـــانى الظبـــــى الـــــذى يـــــبرق شـــــنفاه
ولـــولا الملـــك القـــاعد قـــــد الثمنـــــى فـــــاه

---

[١] المرتضى فى أماليهج١/١٣١.

** ذكر المفضل فى روايته أن عامل البحرين ويدعى بكتابو قال لطرفة : إنك فى حسب كـــريم وبيـــنى وبـــين واهلك إخاء قديم ، وقد أمرت بقتلك فاهرب إذا خرجت من عندى فإن كتابك إن قرى لم أجد بداً مـــن ؟أن أقتلك فأبى طرفة أن يفعله ، فجعل شبان عبد القيس يدعونه ويسقونه الخمر حتى قتل .

[٢] تاريخ آداب العرب ج١/٢٠٥

[٣] العمدة ج١/١٢٩

فغضب عليه عمرو بن هند وأسرها فى نفسه ، وكان طرفة قد هجاه من قبل ثم أرسله إلى عامله على البحرين – كما فى الرواية الأولى – وقتله عامل البحرين ، وقيل : أن أخيه معبد طالب بديته وأخذها من عامل البحرين .[١]

وقد قتل طرفة وعمره خمس وعشرون سنه ، بدليل قول أخيه الخرنق فى رثائه:

عددنا له خمساً وعشرين حجةً ... فلما توفاها استوى سيداً ضخماً
فجعنا به لما استتم تمامه ... على خير حال لا وليداً ولا قمحلاً[٢]

ويروى : ستاً وعشرين حجة ، وقال بعضهم : إنما بلغ عمره نيفاً وعشرين سنه ، فلا يبعد أن تكون ثم رواية : إحدى وعشرين حجة .

ويقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد ، وقيل سنة ٥٦٤[٣] .

ثانياً : كعب بن زهير بن أبى سلمى

١- نسبه وقبيلته :-

كعب بن زهير بن أبى سلمى[٤] ، واسم أبى سلمى : ربيعه بن رياح بن العوام بن قرط بن الحارث بن مازن بن خلاوة ابن ثعلبة بن برد قور بن هرمة بن لاطم بن عثمان بن مزينة بن أد بن طابخه بن الياس بن مدر المزنى وينتهى نسبه إلى نزار.[٥] وقد وضع والده زهير فى عداد غطفان ؛ لأنه عاش مع أبنائه بين أخوال أبيه ربيعه الغطفانيين .

---

[١] الشعر والشعراء لابن قتيبه ؛ ١/١٩١-
[٢] القحم : المتناهى فى السن
[٣] تاريخ آداب العرب ج١/٢٠٥
[٤] قال فيه " الصحاح " ليس فى العرب سلمى - بالضم - غيرة
[٥] انظر ترجمة فى :-
- الأعلام ج٥/٢٢٦ * الشعر والشعراء ص ٦٧
- معجم الشعراء ٣٤٢ * السيرة ٤/١٤٩
* Brock . 1 ;: 32 (38) , S . 1 : 68

وهو مزنى النسب غطفانى النشأة والمربى[١] وليس فـــى ديـــوان زهـــير تصريحاً بذلك لكننا نجد أن كعباً يصرح به فى قولة : [٢]

هم الأصل حيث كنـــت وإننـــى مـــن المزنييـــن المصفيـــن بـــالكرم

ردا على قول الكميت :

وأنت امرؤ من أهل قـــدس أواة أحلتك عبـــد الله أكنـــاف مبـــهل [٣]

٢ـ رواية الشعر وتعلمه :ـ

لقد ورث كعب الشعر عن أبيه وجده ، وورثه ولده " المضرب " وكان لكعب فـــى الشعر ما لم يكن لغيرة ، كان أبوه (زهير) شاعراً ، وجده (أبى سلمى) شـــاعراً ، وخال أبيه (بشامة بن الغدير) شاعراً ، وأخوة (بجير) شاعراً ، وابنه (المضـــرب) شاعراً .

فحق – لنا – أن نطلق عليه شاعراً بالوراثة ، وهو – أى الشعر – خير ميراث آنذاك كما يدل على ذلك قول " بسامة بن الغدير " لزهير – عندما قسم ماله أهل بيتـــه – وقال له زهير : يا خالاه ، لو قسمت لى من مالك : فقال : والله يا ابن أختى لقـــد قسمت لك أفضل ذلك وأجز له . قال : وما هو ؟ قال : شعرى ورتنيه[٤] .

ولقد تتلمذ " كعب " على يد أبيه زهير بن أبى سلمى الذى تنسب إلية الحوليـــات ، لأنه كان ينظم القصيدة وينقحها خلال حول كامل [٥]وتعلم " كعب" من أبيـــه روايـــة الشعر ، فمان هو وأخوه بجير وغيرهما من تلاميذ " زهير" مثـــل الحطيئـــة وغـــيره يتعلمون رواية الشعر عنه ، فيحفظون شعرة ، وشعر غيرة من الجاهليين وروايتـــه

---

[١] طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج١/١٠٧ .

[٢] زعم ابن قتيبة أن نسبه فى غطفان ، وردة ابن عبد البر فى الاستيعاب .

[٣] مبهل : جبل لعبد الله الغطفانى * وقدس أواة : جبل لمزنة.

[٤] تاريخ آداب العرب ج١/٢١٢

[٥] انظر : ديوان " زهير بن أبى سلمى " شرح الأعلم الشنتمرى ، ط ليدن ١٨٨٩ م.

حتى تتضح موهبة الشعر لديهم ، وكان زهير – فى أثناء ذلك – يمتحن قدرتهم بما يلقى عليهم من أبيات يطلب منهم أن يجيزوها بنظم بيت مماثل للبيت الذى أنشده فى الوزن والقافية .

ومثال ذلك ما ذكره " الأصفهانى " [١] أن زهير قال بيتاً ونصف ثم أكد قمر به النابغة فقال له : أبا أمامه أجز ، فقال : وما قلت ؟ قال : قلت :

تزيد الأرض أما مت خفا وتحيا إن حييت بها ثقيلاً

أجز ، فأكدى النابغة ، وأقبل كعب بن زهير وإنه لغلام ، فقال أبوه : أجز يا بنى ، فقال : وما أجيز ؟ فأنشده فأجاز كعب فقال : (وتمنع جابنيها أن يزولا) فضمه زهير وقال : أشهد أنك ابنى .

ويقال – أيضاً – أن كعب تكلم بالشعر فى صغره ، فكان ينهاه أبوه مخافة أنه لم يتمكن من الشعر فيروى له ما لا خير فيه ، فكان يضربه ويحبسه وما يزيده إلا تمكناً وإصراراً على قول الشعر ، فخرج ذات يوم زهير غضباناً على .

ناقته وأردف ابنه خافه يريد أن يعرف ما وصل إليه كعب ، فقال زهير :

إنى لتعدينى على الهم جسره تخب بوصال صروم وتعنق

فضرب كعب وقال له : اجز يالكع ، فقال كعب :

كبنيانه القرئى موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف أبلق

• فقال زهير :

تحن إلى مثل الحبابير جثم لدى منتج من قيضها المتغلق

• فقال كعب :

تحكم عنها قيضها عن خراكيم وعنحدق كالنبخ لم يتفتق

---

[١] الأغانى للأصفهانى ج١٧/٣٩.

فقال زهير قد أذنت لك فى الشعر يا بنى ، فلما نزل إلى أهله وهو صغير قال :

أبيت فلا أهجو الصديق ومن يبع ... بعرض أبيه فى المعاشر ينفق

وقيل : أنها أول قصيدة قالها [١].

٣. مكانته الشعرية :

لقد اشتهر " كعب " فى الجاهلية أكثر من الحطيئة ، ويضعه ابن سلام فى الطبقة الثانية من فحول الشعراء . وروى ابن سلام أن الحطيئة قال لكعب ، " قد علمت روايتى لكم أهل البيت ، وانقطاعى إليكم ، وقد ذهبت الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ، وتضعنى موضحاً بعدك ، فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع " .

فقال كعب :

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ... إذا ماثوى كعب وفوز جرول[٢]

يقول فلا يعيى بشىء يقوله ... ومن قائليها من يسىء ويعمل

كفيتك لا يتقى من الناس واحداً ... يتنخل منها مثل ما يتنخل

يثقفها حتى تلين متونها ... فيقصد عنها كل ما يتمثل[٣]

وقد اعترض عليه مزرد أخو الشماخ قائلاً :

باستك إذا خلفتنى خلف شاعر ... من الناس لم أكتفى ولم أتنخل

فإن تجشبا أجشب وأن تتنخلا ... وإن كانت أفتى منكما أتنخل

ولست كحسان الحسام بن ثابت ... ولست كشماخ ولا كامنخا[٤]

---

[١] بتصرف : الأغانى ج١٧/٤٠

[٢] جرول : اسم الحطيئة

[٣] طبقات فحول الشعراء لابن سلام ج١/١٠٤

[٤] المرجع السابق /١٠٤

وممن رد عليه " الكميت " بقوله :

مهذبة لا كقول الهذاء ... ممن يسيء ومن يعمل
وما ضرها أن كعب ثوى ... وفوز من بعده جرول

ولقد اتصل الشعر فى هذا البيت زمناً طويلاً عبر العصرين الجاهلى والإسلامى ويعد كعب أحد الشعراء المخضرمين [1] الذين عاصروا العصر الجاهلى وأبوا فيه ، وعاصروا – أيضا – العصر الإسلامى ، إلا أن إسلام كعب كان متأخراً بعد فتح مكة.

٤- قصة إسلامه :-

كان كعب وبجير قد خرجا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فلما بلغا أبرق العراق ، قال كعب لبجير : القَ هذا الرجل ، وأنا مقيم لك ها هنا فقدم بجير على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فسمع منه فأسلم ، وبلغ ذلك كعباً ، فقال

---

[1] معنى الخضرمة : جاء فى خزانة الأدب للبغدادى ص ٢٤٥ –المخضرم – وقال صاحب القاموس : هو الماضى نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام ، وقيل من أدركهما . وهذان القولان يعمان الشاعر وغيره من الشعراء . وقيل : الشاعر الذى أدركهما ، وهو المشهور . ثم توسع حتى أطلق على كل من أدرك دولتين كرؤبة بين الحجاج ، وحماد عجرد فإنهما أدركا دوله بنى أميه ، ودوله بنى العباس . وقال السيوطى فى شرح التقريب : المخضرم فى اصطلاح أهل الحديث هو الذى أدرك الجاهلية وزمن النبى – صلى الله عليه وسلم – ولم يرد . وقال ابن رشيق فى العمدة : قال أبو الحسن الأخفش : ماء خضرم كزبرج إذا تناهى فى الكثرة والسعة فمنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والإسلام مخضرما كأنه استوفى الأمرين .وحكى ابن قتيبة عن عبد الرحمن عن عمه " الأصمعى " قال : أسلم قوم فى الجاهلية على إبل قطعوا آذانها فسمى كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرماً ، وزعم أنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد إسلامه بعد وفاة النبى . وهذا ((خطأ)) لأنه النابغة الجعدى وليبدأ قد وقع عليهما هذا اللقب . وحكى على بن الحسن كراع . شاعر مخضرم – بماء غير معجمة مأخوذ من الخضرمة وهى الخلط ، لأنه خلط الجاهلية والإسلام . وقال ابن خلكان : (مخضرم) وجاء فى تاريخ العرب للرافعى ج٣ / ٥٣ .. يقسمون الشعراء باعتبار عصورهم إلى أربع طبقات : جاهلى قديم ، ومخضرم ، وهو الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم أطلقوه على هذه الطبقة فقالوا : شاعر مخضرم ، قال ابن برى : أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم – بكر الراء – لأن الجاهليين لما دخلوا فى الإسلام خضرموا آذان إبلهم أى قطعوا أطرافها ، أما من قال بفتح الراء فتأويله عنده ، أى أنه قطع عن الكفر إلا الإسلام (أنظر تاج العروس ج٧ / ٢٨) وأشهر المخضرمين : لبيد وكعب وحسان والحطيئة والخنساء .

فى ذلك أبياتاً هجا فيها أخوه ، وأذى بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فـــى قوله :

ألا أبلغا عنـــى بجـيراً رســالة : فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكـــا:
شربت مع المأمون كأســاً رويــة فانهلك المـــأمون منـــها وعلكـــا[١]
وخالفت أسباب الـــهوى وتبعتـــه على أى شىء ويب غيرك دلكـــاً [٢]
على خلق لم تلـــف أمـــا ولا أبـــاً عليـــه ولـــم تـــدرك عليـــه أخالكـــا
فإن أنت لم تفعل فلســـت بآســف ولا قائل ، إما عثرت : لعـــاً لكـــا :

فأنشد بجير الأبيات لرسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقال : صدق .. أنا "المأمون " وإنه لكاذب ، قال : أجل لم يلف أباه ولا أمه على الإسلام .

وأهدر النبى - صلى الله عليه وسلم - دمه ، وأرجف الناس بقتله فضـــاقت عليه الأرض بما رحبت ، ثم لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - المدينـــة منصرفة من الطائف ، كتب بجير إلى أخيه كعب : إن كانت لك فى نفسك حاجة فـــأقدم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه لا يقتل أحداً جاءت تائباً"

وبعث إليه بخير :

فمن مبلغ كعباً فهل لك فـــى التـــى تلوم عليـــها بـــاطلاً وهـــى أحـــزم
إلى الله لا العزبى ولا اللات وجـــده فتنجـــو إذا كـــان النجـــاء وتســـلم
لدى يوم لا ينجو وليـــس بمفلـــت من النار إلا طـــاهر القلـــب مســـلم
فدين زهير وهو لا شـــىء غـــيره ودين أبى ســـلمى علـــى محـــرم[٣]

استمر كعب على وثنيته حتى فتحت مكة ، فكتب إليه بجير يخبره أن الرســول - صلى الله عليه وسلم - قتل كل من أذاه من الشعراء المشـــركين ودعـــاه أن يســـلم ويقدم على الرسول- صلى الله عليه وسلم - ثانياً ليعفو عنه . ولما شرح الله صدره للإسلام قدم على المدينة متخفياً (قبيـــل عـــام ٥ /٦٢٨م) فقـــدم علـــى أبـــو بكـــر

---

(١) المراد بالمأمون هو النبى صلى الله عليه وسلم .
(٢) " ويب " كلمة مثل ويل وويح وهى تفيد التعجب . وويب غيرك : الويل لك وحدك .
(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر / تحقيق علي محمد البجاوى ج١/١٤٨،١٤٩

الصديق[١] ، فلما سلم الرسول – صلى الله عليه وسلم – من صلاة الفجر ، جـــاء به أبو بكر متلثماً بعمامته فقال يا رسول الله هذا رجل يبايعك على الإســـلام ، وكـــان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يعرف كعباً ، فمد يده الشريف ، فكشف كعب عن وجهه وقال : أنا كعب بن زهير ، فأمنه – صلـــى الله عليـــه وســـلم – فأنشـــد قصيدة: –

بانت سعاد فقلبى اليـــوم متبـــول متيـــم إثرهـــا لـــم يعـــد مكبـــــول
وما سعاد غداة البين إذ رحلـــوا إلا أغن غضيض الطـــرف مكحـــول

فكساه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بردة اشتراها معاويـــــة بـــن أبـــى سفيان من أبناءه بعشرين ألف درهم ، فكان الخفاء الأمويون يلبســـونها مـــن بعـــد معاوية فى العيدين ، ولقبت بعدها بالبردة ".[٢]

الفصل الثالث

الأبيات التى قالها كل منهما فى وصف الناقة

١ – **وصف الناقة عند طرفة** : الدراسة والتحليل

٢ – **وصف الناقة عند كعب بن زهير** : الدراسة والتحليل

١ـ وصف الناقة عند طرفة :ـ

لقد وصف " طرفة " ناقته فى معلقته (الدالية ، ويشتمل وصفة على ثمـــان وعشرين بيتاً من معلقة من أول قوله (بحر الطويل)

---

[١] قيل نزل على رجل من قبيلة جهينه ، بينه وبين كعب صداقة ، وهو الذى أخذه للرسول –صلى الله عليـــه وسلم – .

[٢] أنظر : " البردة " فى الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ج٦/٥٩– ٦١٨

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدى [١]
أمون كألواح الأران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد [٢]
تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت ... وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد [٣]
تربعت القفين فى الشول ترتعى ... حدائق مولى الأسرة أغيد
تريع إلى صوت المهيب وتتقى ... بذى خصل روعات أكلف ملبد [٤]
كأن جناحى مضرحى تكنفا ... حفافيه شكا فى العسيب بمسرد [٥]
فطوراً به خلف الزميل وتارة ... على حشف كالشن ذاو مجدد [٦]
لها فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد [٧]
وطى محال كالحنى خلوفه ... وأجرنه لزت بدأى منضد [٨]

---

(١) أمضى : أنفذ ، يقال مضى الشئ يمضى مضاء ومضياً وأمضيته أنا أمضيه امضاء إذا أذهبته عنك - الهم : ما هم فى نفسه من أمور - الاحتضار : الحضور - العوجاء : الضامرة التى لحق بطنها بظهرها - المرقال : الكثيرة الإرقال وهو ضرب من السير السريع - تروح وتغتدى : تصل الليل بالنهار فى السير .
* والمعنى : إذا نزل بى هم أو حزن طردته عنى وأمضيته بأن أرتحل على هذه الناقة العوجاء الضامرة السريعة ، فهى تبلغنى ما أريد حتى ينجلى ما ألم بى من كرب وشدة .

(٢) أمون : يؤمن عثارها - الإران : تابوت كانوا يحملون فيه سادتهم وكبرائهم دون غيرهم - نسأتها : زجرتها بالعصا والمنسأة هى العصا ، وقيل : نسأتها قدمتها ونسأتها أخرتها - اللاحب - الطريق البين - البرجد - كساء مخطط .
* المعنى أن ناقته قد أمنت الضعف فهى قوية مأمونة العثار لا تؤثر فيها الجهود التى تبذلها فى السير ثم شبهها فى صلابتها بألواح توابيت الموتى التى تتخذ من الأخشاب الصلبة ، وقد زجرها على طريق واسع فيه ممرات ممهدة للسير حتى ليبدو وكأنه ظهر كساء مخطط . ففى البيت تشبيهان الأول : أمون كألواح الأران ، الثانى : اللاحب (الطريق) كأنه ظهر كساء مخطط .

(٣) تبارى : تعارض - العتاق : الكرام من الإبل البيض - الناجيات : السراع - الوظيف : عظم الساق ، وقوله : وأتبعت وظيفاً وظيفاً أى اتبعت وظيف يدها وظيف رجلها .
* المعنى : أن سرعة ناقته وقوتها وأصالتها تشبه العتاق النجيبات فهى لا تقل عنهم مجالاً

(٤) المهيب : الذى يصيح بها هوب - تريع : ترجع إلى صوت الراعى إذا دعا بها - تتقى بذى خصل : المفهوم محذوف المعنى وتتقى الفعل بذنب ذى خصل ، لأن الناقة إذا كانت حاملاً أتقت الفحل بحركة ذنبها فيعلم الفحل أنها حامل فلا يقربها - الأكلف : الذى فى لونه حمرة من السواد ، ولا يختص بها الفحل بل هو ما كلفت حمرته - الملبد : الوبر الملبد - الروعات : جمع روعة وهو الفزع .
* المعنى : أنها ناقة مطيعة تستجيب لمن يناديها رغم أنها قوية ، وتستطيع رد عدوان فحل قوى عليها .

(٥) المضرحى : العتيق من النسور يقرب إلى البياض - شكا : أى ثبتا وغرزا - العسيب : عظم الذنب - المسرد : ما يخرز به .
* المعنى : أن ناقته قوية حتى فى ذنبها الذى يشبه فى قوته وضخامته جناحى نسر عتيق أبيض جميل .

(٦) الزميل : الرديف ، ولا زميل هناك إنما أراد موضع الزميل - الحشف : الضرع البالى - السن : القربة الخلق - ذاو : ذابل - المجدد : الذهب اللين .
* المعنى : أنها دائمة الحركة خاصة حركة ذنبها فهى تضرب به فى قوة على ضرعها تارة لتحمى نفسها ، وتارة مكان الرديف وهذا دليل على قوتها وشدة صلابتها .

(٧) أكمل : أتم - النحض : اللحم - المنيف : القصر المشرف - الممدد أو الممرد : الملس .
* المعنى فى هذا البيت يصف الشاعر ناقته بالضخامة والعظم ، وأنها متكاملة الأجزاء فاخرة البناء ، ويدل هذا على مكانتها فى نظره ، فهى طويلة وليست قصيرة هزيلة ، وكاملة النحض وليست مترهلة إلى غير ذلك من الصفات التى سيذكرها .

(٨) الطى : البئر المطوية أى المبنية - المحال : فقار الظهر الواحدة محالة - والحنى : القسى ، واحدها حنية - الخلوف : أطراق الأضلاع - الجران : باطن العنق - لزت : قرن بعضها إلى بعض - ودأى : جمع دأية وهى الفقار ، وكل فقرة من فقار العنق والظهر دأية. =

كأن كناسي ضالة يكنفانها ... وأطر قسي تحت صلب مؤيد[١]
لها مرفقان أفتلان كأنها ... تمر بسلمي دالج متشدد[٢]
كقنطرة الرومي أقسم ربها ... لتكتنفن حتى تشاد بقرمد[٣]
صهابية العثنون موجدة القرا ... بعيدة وخد الرجل موارة اليد[٤]
أمرت يداها فتل شزر وأجنحت ... لها عضداها في سقيف مسند[٥]
جنوح دفاق عندل ثم أفزعت ... لها كتفاها في معالي مصعد[٦]
كأن علوب النسع في دأياتها ... موارد من خلفاء في ظهر قردد[٧]
تلاقى وأحياناً تبين كأنها ... بنائق غر في قميص مقدد[٨]
وأتلع نهاض إذا صعدت به ... كسكان بوصي بدلجة مصعد[٩]

=*المعنى : يصف طرفة ناقته بقوة أصلابها وروعة هيكلها ، وأن ظهرها يشبه القسي ، فهي لذلك متينة قوية ، وكذلك عنقها فيه ما فيه من الشدة والتماسك ما يعجب به الإنسان .

(١) الكناسي : بيت يتخذه الثيران في أصل شجرة كالسرب يكنها من الحر والبرد – المؤيد : المقوى .

* المعنى : يشبه طرفة هيكل ناقته ، وكأنه بيت للوحوش ، وظهرها بما فيه من عظام شديد ، كأنها قسي محكمة متينة .

(٢) الأفتلان : المباينان – السلم : الدلو – الدلج : الذي يمشي بين الحوض والبئر .

* المعنى : أن ناقته لها مرفقان قويان ، وهي تشبه في هذه الحالة سقاء قويا يحمل بكل يد دلواً وقد باعدهما عن جنبيه لقوته وصلابته .

(٣) القنطرة : الجسر فوق الماء – الرومي : نسبة إلى الروم شبه الناقة بها لانتفاخ جوفها وشدة خلقها . – الأكناف : النواحي – تشاد ترفع – القرمد : الآجر .

* المعنى أن ناقته تعجب الناظرين فهي مبنية بإحكام كقنطرة الرومي الذي صنعها بإتقان .

(٤) الصهابية : التي يضرب لونها إلى الصهبة ، وهي بياض يخالطه حمرة – العثنون : ما تحت لحييها من الشعر – الموجدة : المحكمة – الوخد : ضرب من السير – وقوله : بعيدة وخد الرجل يريد سعة خطوها – موارة اليد : أي أن كتفيها تتبعان يديها في سهولة .

* المعنى : يقول طرفة أن هذه الناقة أصيلة ، ويدل على ذلك لونها فهي كريمة قوية تسرع في سيرها بدون تكاسل أو تخاذل .

(٥) أمرت:فتلت–الفتل: الفتل – أجنحت : أمليت – المسند : السقف الذي أسند بعضه إلى بعض

* المعنى:أن جسمها محكم الفتل قوى البنان مشدد بعضه إلى بعض كأنه سقف محكم الصنع

(٦) الجنوح : التي تميل على أحد شقيها في السير لنشاطها في السير – والجنوح : مبالغة في الجنوح – الدفاق : التي تتدفق في السير / أي مسرعة غاية الإسراع – العندل : الضخمة الرأس – أفرعت : الإفراع الطول والتعلية – معالي مصعد : أي جسم مرفوع عن الأرض .

* المعنى:أن ناقة طرفة طويلة وليست قصيرة،فهي تبعد عن الأرض وتمشي بخفة وسرعة عجيبة، وكأنها تتدفق في سيرها بل أنها على أحد شقيها في المسير نظرا لقوتها وضخامتها

(٧) العلوب : الآثار – النسع : حبل مضفور من أدم – الدأيات : منتهى الأضلاع – الموارد : طرق المياه – الخلقاء : الصخرة الملساء – القردد : الأبيض الصلبة المستوية .

*المعنى أن الحبال القوية المحكمة الفتل لا تؤثر على هذه الناقة لقوتها وشدة لحمها وصلابتها .

(٨) تلاقى : أي تتلاقى وتتقابل – تبين : تفرق : الفرق – البنائق : جمع بنيقة وهي السطر المطرد – عر : بيض – المقدد : المشقق .

* المعنى يؤكد هذا البيت الذي قبله من حيث وصف الناقة بالقوة والشدة وعلى كثرة ما عليها من خيوط وحبال يجتمع وتفترق لا تؤثر على جسدها الضخم وجلدها الأملس الشديد .

(٩) الأتلع : يعني بالأتلع عنقها ، والأتلع المشرف والتلع الطول – : نهاض : كثير النهوض به : أشخصته إلى السماء – السكان : الذي تقوم به السفينة ، وفي عرف البحرية (الدفة) – البوصي : السفينة ، وهي لفظة فارسية معربة – مسعد : يعالج المج . =

وجمجمة مثل العلاة كأنما ... وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد[١]

وخد كقرطاس الشامى ومشفر ... كسبت اليمانى قده لم يحرد[٢]

وعينان كالماويتين استكنتا ... بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد[٣]

طحوران عوار القذى فتراهما ... كمكحولتى مذعورة أم فرقد[٤]

وصادقتا سمع التوجس للسرى ... لهجس خفى أو لصوت مندد[٥]

=* المعنى : يشبه ناقته وسرعة مشيها بشراع السفينة التى تمخر عباب الماء فى قوة وخفة حركة ونشاط .

(١) العلاوة : السندان وهى الحديدة التى يطرق عليها الحداد شبه جمجمتها به فى صلابته - الجمجمة : عظام الرأس ، الوعى : معناه - هنا - الاجتماع والانضمام - والملتقى : مكان الإلتقاء - الحرف : الطرف والناحية - المبرد : ما يبرد به الحديد .

* المعنى : أن رأسها قوية صلبة وعظام رأسها فى اجتماعها وتداخلها بلغت من الأحكام والدقة مبلغاً كبيراً .

(٢) الخد : صفحة الوجه - القرطاس : الصحيفة ، شبه بياض خدها القرطاس قبل أن يكتب فيه - المشفر من البعير كالشفة من الإنسان - السبت : جلد البقر المدبوغ بالقرظ .

قال الأعلم فى شرح الديوان : شبه بياض خدها ببياض القرطاس ، ويقال : أراد أنه عتيق لا شعر فيه وإنما قيل : الشآمى ، لأنهم نصارى أهل كتاب .

وقال أبوزيد القرشى : شبه خدها بالقرطاس ، وهو الورق من جهة الشام .

وذكر الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه (مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٩٢) أن طرفة أراد بالقرطاس - هنا - ورق البردى - لا الجلد كما زعم البعض - ؛ لأنه ذكره فى مقابل " السبت وهو جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، فحينما أراد تشبيه خدها شبهه فى نقائه وبياضه بالورق ، ثم شبه مشافرها بالجلد المدبوغ بالقرظ .

(٣) المؤية : المرآة - أستكنتا : طلب الكن - الكهف : الغار فى الجبل ، وهو - هنا - غار العين الذى فيه مقلتها - الحجاج : العظم المشرف على العين الذى ينبت عليه شهر الحاجب - القلت : نظرة فى الجبل يستنقع فيها الماء - المورد : الماء هنا -

* المعنى : يصف طرفة عين ناقته ، فيقول : أن لناقته عينين صافتين براقتين كمرآتين : وهما يشبهان فى صفائهما الماء النقى الذى تجمع فى حفرة من الصخر فأصبح صافياً يعجب النظر ويسر الفؤاد . ولقد شبه طرفة عينيها بكهفين فى غزورهما ، وحجابيها بالصخرة فى الصلابة .

(٤) طحوران : دفوعان - العوار - ما أفسد العين من الرمد - كمكحولتى : يريد كعينيى بقرى لا تكحل - مذعورة الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

* المعنى : يصف جمال عينيها بالقوة والإشراق ودقة الإبصار ، ويشبهها بعينى بقرة وحشية مذعورة على ولدها : عندما يفزعها صائد أو غيره ، وعينيها فى هذه الحالة أحسن ما تكون .

(٥) التوجس : المتسمع بحذر - الهجس : الصوت الخفى - للسرى : أى فى السرى أو عند السرى ، ويقال سرى وأسرى إذا سار بالليل ، وقيل للنهر سرى من هذا ؛ أن الماء يسرى فيه - المندد : العالى . =

مؤللتان تعرف العتق فيهما ... كسامعتى شاة بحومل مفرد (١)
وأروع نباض أحد ململم ... كمرداة صخر فى صفيح مسمد (٢)
وإن شئت سامى واسط الكور رأسها ... وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد (٣)

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت ... مخافة ملوى من القد محصد (٤)
وأعلم مخروت من الأنف مارن ... عتيق متى ترجم به الأرض تزدد (٥)
على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ... ألا ليتنى افديك منها وأفتدى (٦)

=* المعنى : يصف أذنيها بدقة السمع وقوته ، وأنها تعتمد عليهما كل الاعتماد لتكون فى مأمن من الخطار ، فهما لا يخفى عليهما السر الخفى (فى الليل) ولا فى الصوت الرفيع .

(١) المؤلل : المدقق – العتق : الكرم ، يريد – هنا – الحسن والنقاء ، ويريد بالشاه – هنا – الثور الوحشى – حوامل : اسم مكان .

* المعنى : لها أذنان محددتان تحديد الآلة ، تعرف نجابتها فيها ، وهما كأذنى ثور وحشى منفرد فى الموضع المعين ، وخص المفرد لأنه أشد فزعاً ، وتيقظاً واحترازاً .

(٢) الأروع : القلب الفطن ، الذى يرتاع كل شئ لذكائه – النباض : الخفيف ، كثير الحركة – الأحد : الأملس الذى لا يتعلق به شئ – الملمم : المجتمع – المرداة : صخرة تدق الصخور بها – الصفيح من الحجارة العريض – المصمد : الصلب المحكم الموثوق .

* المعنى يصف طرفة ناقته بالقوة والمتانة ، وهو يشبه صخرة المرداة التى تحطم غيرها من الصخور ، وأنه فى مكان أمين لما يحيط به من الأضلاع القوية المحكمة .

(٣) سامى :عالى – واسط الكور : العود الذى بين موركة الرحل ومؤخرة ، وموركة الرحل : الموضع الذى يضع عليه الراكب رجله – عامت : سبحت – النجاة : السرعة – الخفيد : الظليم ، وهو ذكر النعام ، والأنثى الخفيدة .

* المعنى : يصف طرفة ناقته بالسرعة الشديدة فى أى وضع يستريح راكبها عليه ويقول : وأسرعت حتى كأنها تسبح بعضديها إسراعاً مثل إسراع الظليم .

(٤) الإرقال ضرب من السير السريع – الملوى : أراد به – هنا – السوط – المحصد : المحكم الموثق الفتل – القد : جلد غير مدبوغ .

* المعنى : أن ناقته معلمة مدربة لا تحتاج إلى زجر أو ضرب ، فهى إن شئت تسرع وإلا فلا ، ويستطيع راكبها أن ينعم بالسفر عليها ، ويشعر بالراحة والسرور .

(٥) العلم : مشقور الشفة العليا بالإبل ، وإن كان فى السفلى قيل له أفلح – المخروت : المثقوب – المارن : ما لان من قصبة الأنف – ترجم : تضرب .

المعنى : أن ناقته كريمة الأصل عريقة الغرس سريعة فى سيرها ، لها صفات تدل على حسن أرومتها .

(٦) أفديك منها : أى أعطيك فداءك وتنجو وافتدى أنا منها أى أنجو .

* المعنى : يقول طرفة على مثل هذه الناقة الكريمة أقطع أسفارى إذا خاف صاحبى من متاهات الطريق وما فيه من مصاعب وأهوال .

٢- الدراسة والتحليل : -

لعل معلقة " طرفة " لاقت من الذيوع والإنشاء مكانـــة عاليـــة فـــى الجاهليـــة والإسلام ويبلغ مجموع أبيات حوالى ١٠٥ (بيتاً) موزعة كما يلى : -

٢ : فى الأطلال .

٣ : فى موكب الارتحال .

٥ : فى وصف الحبيبة .

٣٣ : فى الناقة . (وقيل ٢٨) .

٣٩ : فى الفخر الشخصى .

٤ : فى المسرف والممسك .

٧ : فى الموت والأيام .

١٢ : فى موقف ابن عمه منه .

ومن بين هذا حكم تنتثر هنا وهناك فى مناسباتها .

وقد بدأ معلقته بذكر الأطلال ووقوفه بها هو وأصحابه ، فظهر عليه الأســى، حتى كاد يهلك :

لخوله أطـــلال ببرقـــه ثـــهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليـد

ثم عاد بذكرياته إلى الماضى ، فاسترجع ساعة الفراق ، وعـــرض موكـــب الارتحال ... ثم وصف حبيبته ...

وهنا يحس أن الهم قد تملكه ، وأظلم عليه المكان ، وضاق الأفق حولـــه ، فلم يجد بداً من اللجوء إلى مسلية همومه ، تلك هى " الناقة " .

فأخذ يصورها ، وكأنما يريد أن يجسمها فتتبعها جزئية جزئية بكل صغيرة وكبيرة من رأسها إلى أرجلها ، حتى ذنبها ، والشعرات التى لحيتـــها ، فتبـدأ فـى تصويره : -

أنها ناقة ضخمة ، جسمها قوى ، محكم البيان مفتول العضلات ، وجمجمتها صلبة شديدة الالتئام ، وعنقها طويل مشرف يرتفع إذا سارت ، وخدها أبيض مشرف خال من الشعر نقى ومشفرها طويل جميل الشكل ، وعيناها صاقيتان لامعتان حادتـــا النظر نقيتان ، وآذانها فيها حسن ونقاء ، تدلان على العتق والكرم ، حادتـــا الســمع حتى للصوت الخفى ومشفرها الأعلى لين مشقوق .

مما يلى الأنف الذى إذا أو مأت به إلى الأرض ازدادت سيراً ، وما تحت لحييـــها من الشعر الأبيض مشوب بحمرة ، وظهرها متين محكم ، وفقـــاره قويـــة متراصـــة متدان بعضها من بعض ، وباطن عنقها شديد محكم ، وأطـــراف أظلافـــها مقوســـة ويداها مفتولتان بعيدتان عن كركرتها ، وفخذاها قد اكتـــنز لحمـــها وفيـــهما طـــول ونعومة ، وأميلت عضداها نحو جنبين ، كأنهما سقف أحكم وضع لبناتـــه ، وقلبـــها حديد ، شديد الارتياع ، قوى النبض ، خفيف ، مجتمع كأنه كتله من صخر ، وذنبـــها قوى فيه شعر غليظ متين ، تدافع به عن نفسها وتحركه دائماً فـــى نشـــاط وقـــوة ، فتارة تضرب به خلف الزميل وتارة تضرب به ضرعها البالى الخالى من اللبـــن ، ولا تترك حبال الرجل فى جسمها آثار سيرهم فى صخرة ملساء .

كما تحدث عن غذائها وسيرها ، وجريها ونشاطها وذكائها : فقد ربيـــت علـــى أحسن الغذاء ، وهى معتادة الغدو والرواح ، سريعة السير وراكبها آمن ، فـــإذا مـــا سلكت طريقاً فيه آثار السير انطلقت كأنها فى سباق مع إبل بيـــض كـــرام ســـراع ، وكتفاها تتبعان يديها فى سهولة ويسر وحينما تجرى تميل على أحد شقيها فى تدفـق لفرط نشاطها وهى طوع إرادة صاحبها إن شاء أسرعت وإن شاء أسرعت وإن شـاء لم تسرع ، وتلبى صوت راعيها ، وأحياناً تتبختر فى مشيها تبختر الأمة أمام ســيدها ، حين تجر أذيالها وتهز أعطافها .....الخ.

الدراسة والتحليل :

تعد لامية كعب بن زهير ، أهم قصائده وأقواها فهى تشمل على خصائص شعر الجاهلية من حيث التكامل والجزالة والضخامة والغرابة ، أضف إلى ذلك طريقة الصنعة التى اشتهر بها زهير بن أبى سلمى وأخذها منه تلاميذه ، ومنهم أبنه كعب إضافة إلى الروح الإسلامية فيه [1] لذلك يضعه الكثير من الأدباء بعد حسان والحطيئة حيث لا يوجد له إلا بضعة أبيات فى اللامية ، وأخرى فى مديح الصحابة كما فى قوله :

من سره كرم الحياة فلا يزل ... فى منقب من صالحى الأنصار

وأخرى :

فأقسمت بالرحمن لا شىء غيرة ... يمين أمرى برولا أتحلل

هو الحافظ الوسنان بالليل ميتا ... على أنه حى من النوم مثقل

ونجد الروح الإسلامية فى قصائده كما فى قوله :

سأدعوهم جهدى إلى البر والتقى ... وأمر العلا ما ساقتنى الأصابع

وقد اهتم الكثيرون من أهل اللغة والأدب بقصيدته البردة شرحا واحتذاء باعتبارها من الشعر الدينى ، وأن الروح الإسلامية فيها ليس بالقدر الذى يتوهمه الكثير إنما كان السبب فى اهتمام العلماء والأدباء بها هو مناسبتها ؛ حيث وهب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بردته لكعب ، إضافة إلى ما فى القصيدة من فخامة لفظ وجزالة عبارة .

إلا أن هذه القصيدة أصبحت نموذجاً يحتذى به فى المدح ؛ لأن فيها ملامح جديدة لم يكن الشعراء يمدحون بمثلها فى الجاهلية كحديثة عن القرآن الكريم وعن

---

[1] الشعر والشعراء ج١ص١٦١ .

هداية النبى – صلى الله عليه وسلم – للناس وتأييده من ربه ، ففتح الباب لمن جاء بعده وهى خدمة كبيرة للإسلام .

وقد أثر الإسلام على شعر كعب فرق ولان وسهل ، وانسابت فيه المعانى الإسلامية كما فى قوله :

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر

وكعب الذى نبغ منذ صغره فقال الشعر فى صغره بل أجاد ما عجز عنه الفحول، وذلك الامتحان الذى قدمه له أبوه قبل أن يأذن له برواية أشعاره ونظم الشعر ، فقد كان امتحاناً قاسياً عندما يأخذ زهير ابنه خلفه ثم يلقى عليه أبياتاً يطلب منه أن يجيزها وهى تتعلق بوصف الناقة ، والتى تحمل من الألفاظ الغريبة ما هو أكثر من طاقة طفل – كما مر بنا – .

وكعب يجعل من الناقة أحد أغراضه فى قصيدة التى ألقاها على الرسول متبعاً بذلك بناء القصيدة الجاهلية سواء فى جزالة ألفاظها أو فى أغراضها .

ولقد أجاد الوصف ؛ لأنه ضمنه الكثير من الألفاظ الغريبة التى تعجز القارئ فى فهمها ، ولا بد له من الرجوع للمعاجم لفهما ، إلا أن هذا الوصف لم يتجاوز عدة أبيات ، وقد يكون ذلك أنه ألقاها على الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يعد لها من قبل ، فلم يتبع بها ذلك الأسلوب الذى اتخذه عبيد الشعر من تنقح خلال حول.

وقد يدل على ذلك تعريضه بالأنصار لغلظتهم معه عندما قدم على الرسول ﷺ وموقفهم منه فى قوله[1] :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

وكانت الناقة – فى هذه القصيدة – وسيلة تنقل كعب إلى حبيبة سعاد التى تسكن بأرض بعيدة عنه ، ولا يمكن لأى ناقة الوصول إليها ، فلا بد أن تكون من

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق الشيخ محمد بيومى ج٢/٤٣ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة .

كرام الإبل وأقواها وأن تتوفر فيها خصلة هى السرعة ، وليست السرعة ، إنما هى بين الإرقال والتبغيل وهما ضربان من السرعة كما فى قوله:

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا الكرام النجيبات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة لها على الأين إرقال وتبغيل

وبما أن ما تتصف به هذه الناقة من صفات القوة والقدرة على السير يتوقف عليه تحقيق هدفه من إلغاء المسافة بينه وبين موضوع حبه فإن الإطالة فى وضعها يحقق له نوعاً من الاطمئنان النفسى[١] .

ثم يدلل على شدة احتمالها وسرعة جريها بذلك العرق الذى لا يكون إلا مع اشتداد السير وجهدها فيه كما فى قوله :

من نضاخة للذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول

وهذه الناقة عارفة للطريق المجهول المسالك لكثرة أسفارها ، ثم يأتى بما يؤكد به هذه المعرفة عندما يصف عينيها بعينى ثور وحشى المشهور بحدة البصر ، وألف البرارى وخيرها ، فهى تبصر ما غاب من آثر الطريق عن العيون وقت اشتداد الحر فى كل الأمكنة ، وهذا ما يؤكد معرفتها بالطريق ، ونجد ذلك فى قوله :

ترمى النجاد بعينى مفرد لهق إذا توقدت الحزان والميل

ويصفها – أيضاً – (كما أنها أصيلة المحتد) فأخذها هو أبوها ، وعمها هو نفسه خالها ويبدوا أن لهذا مدخلاً – أيضاً – فى كونها قوية البدن إلى جانب ما هى عليه من شرف النسب ، وهى ملساء الجسم ، فقال واصفاً إياه فى بيتين :

وجلدها من أطوم ما يؤيسه طلح بضاحية المتنين مهزول

يمشى القراد عليها ثم يزلقه منها ليان وأقرب زهاليل

فيشبه وكأنه زرافة لملاسته ، بحيث لا يتمكن القراد الجائع من أن يعلق بالناقة ، وخاصة فى جانبيها اللذان يظهران للشمس فلا يتمكن من أن يتغذى على دمعها .

ثم يضيف إضافة أخرى يجعل هذا القراد ينزلق من جلدها لملاسته وهذا ادعى لأن تكون الناقة قوية ونشيطة وسريعة .

---

[١] مديح الرسول فى فخر الإسلام ، د . صلاح عيد ، ص ٦٦ ط. دار المعرفة.

الفصل الرابع

١- سبب إنشـــاد كـــل منهما لقصيدته .

٢- صحة نسب الأبيات إلى كل منهما .

٣- طريقة الوصف عنـــد كـــل منهما .

٤- آراء النقاد فى وصف كـــل منهمـــا للناقـــة .

٥- الغرض الذى استخدم كل منهما الناقة لأجله .

٦- وصف سرعـــة الناقـــة عنـــد كـــل منهمـــا .

٧- التشابه فى إحدى الصور .

٨- وصـــــف الذيـــــــل .

٩- خصائص الأسلوب عند كل منهما .

أ - المستوى اللفظى والتركيبى . ب- المستوى البلاغى .

ج- المستوى القاموسى الشعرى (الموسيقى) .

١-سبب إنشاد كل منهما لقصيدته :-

روى بعضهم أن سبب إنشاد " طرفة " لمعلقة – هذه – ، أنه كـــان لطرفـــة أخ اسمه "معبد " وكان لهما إبل يرعيانها يوماً ويوماً ، فلما أغبها طرفة ، قـــال أخـــوه معبد : لم لا تسرح فى إبلك ؟ ترى أنها أتخذت تردها بشعرك هذا ؟ قـــال : فـــإنى لا أخرج فيها أبداً ، حتى تعلم أن شعرى سيردها إن أخذت ؛ فتركها وأخذها ناس مـــن مصر .

وقيل بل إن الإبل التى ضلت هى إبل معبد فسأل طرفة ابن عمه مالكا أن يعينه فى طلبها فلامه وقال : فرطت فيها ثم أقبلت تتعب فى طلبها ؛ فقال قصيدته [١] :

لخوله أطلال ببرقد ثهمد

فهذه الرواية – لو صحت – لبينت – لنا – أن السبب الذى من أجله أنشدت هذه القصيدة هو " الإبل " وأن المقطع الأول – من القصيدة هام للولوج عالم القصيدة (الإبل) غير منفصل عن الوصف التالى لناقة ، فشكواه الحزينة من الاستلاب والعدم الذى يحسه حتى وهو فى أحضان الإبل يمارس لهوه وعبثه ، فهو مسافر فى رحلة تقوده فيها ناقته مسرعة معجلة .. وهو رحلته – هذه – وحيد لا تأنسه إلا ناقته هذه والأمانى التى تبرق ثم تخبو لتسلمه إلى ليل طويل ليس فى انقضائه أمل أو رجاء ..

وأما كعب بن زهير فسبب إنشاده لقصيدة (اللامية) فهو إهدار النبى- صلى الله عليه وسلم – لدم كعب – كما مر بنا [٢] .

فلعل سبب إنشاد كل منهما لقصيدته ، متقارب ، وغن بعد ما بين الاثنين فى الزمان والمكان ، ولا سيما فى القصيدة ، إلا أن هذا التقارب ينشأ بينهما من الحالة النفسية التى كانت تسيطر على كل منهما عند إنشاده لقصيدته .

فطرفة تسيطر عليه حالة الحزن الشديد لفقده إبله ، بل يصل ذلك إلى حد الخوف فينقلب ذلك إلى فلسفة وجودية – كما سيأتى – ، وتطرده العشيرة كلها ، يفرد البعير المعبد .

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

---

[١] تاريخ آداب العرب ج١/٢٠٦ .

[٢] انظر البحث ص:

وأما كعب فقد بلغه إهدار النبى – صلى الله عليه وسلم – لدمه ، وأنه مقتول لا محالة فيسيطر الخوف – أيضاً – على نفسيته ؛ ولكنه بسبب الإسلام لم ينقلب مثل طرفة إلى فلسفة خاصة ، بل انقلب إلى استعطاف لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– .

١ـ صحة نسب الأبيات إلي كل منهما :ـ

لم يتطرق الشك إلى أبيات كعب بن زهير ؛ لأن سلسلة الرواية التى اشترك فيها تمنع هذا الشك ، بل مجرد التفكير فيه ؛ أضف إلى ذلك أن قصيدته قيلت فى حضرة النبى – صلى الله عليه وسلم – فنالت من الشهرة ما جعلها بمنأى عن التحريف والتزييف .

وأما قصيدة طرفة – خاصة الأبيات التى وصف فيها ناقته – فشأنها شأن الموروث الشعرى من العصر الجاهلى ، فقد تطرق إليها الشك ، وقالوا أنها – ألفاظ وصف الناقة – من وضع علماء اللغة .

يقول الدكتور " طه حسين " [١] بعد أن يصف طرفة بالمتانة فى اللفظ ، والغرابة أحياناً ، وأنه أشبه بشعر المضريين منه بشعر الربعيين ، والدليل على ذلك وصفه للناقة ، ويذكر أبياتاً من هذه المعلقة فى وصف ناقته ، ويعلق عليها بقوله:–

وهو يمضى على هذا النحو فى وصف ناقته ، فيضطرنا إلى أن نفكر فيما قلناه – من قبل – من أن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أى شئ آخر .

---

[١] فى الأدب العربى الجاهلى ص ٢٢٦ وما بعدها .ط دار المعارف الطبعة الثانية عشرة.

وإذن فأنا أرجح أن هذه القصيدة شعراً صنعه علماء اللغة ، هو هذا الوصف الذى قدمنا بعضه ، وشعراً صدر عن شاعر حقاً هو هذه الأبيات وما يشبهها ، ولسنا نأمن أن يكون فى هذه الأبيات نفسها ما دس على الشاعر دساً ونحله نحلاً .

فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة إنه طرفة ، ولست أدرى أهو طرفة أم غيره بل لست أدرى جاهلى هو أم إسلامى ، وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدوى ملحد شاك " .[1]

هكذا يبلغ الشك عند الدكتور " طه حسين " ذروته ، بل ويفصح عن هذا الشك فى كتابه " حديث الأربعاء " فيقول محدثاً صديقه عن "طرفة " ...لسنا يا سيدى بازاء قصيدة لطرفة ، إنما نحن فى أكبر الظن ، بازاء بقايا قصيدة لطرفة ، وليست هذه الناقة التى تقوم بينك وبين المعانى الرائعة والصور الجميلة ناقة طرفة فى أكبر الظن ، وإنما منها فى شئ ؛ ألم تبلغ وسط القصيدة وآخرها ؟ قال : بلى . قلت : فكيف تستطيع أن تفهم هذا الاختلاف العظيم بين هذا الجزء الذى وصفت فيه الناقة وبين ما بعده وما قبله من الأجزاء ؟ ألست ترى فى وصف الناقة إغراباً وتكلفاً للألفاظ التى يقل استعمالها ويندر أن تنطق الألسنة بها إلا عند الأخصائيين ؟ ثم ألست ترى أن هذه الألفاظ الغريبة النادرة تقل الغريبة النادرة تقل وتكاد ألا توجد فى سائر القصيدة ؟ وأن لغة الشاعر تسهل وتلين دون أن تفقد جزالتها ومتانتها إذا تجاوز الناقة إلى غيرها من المعانى والأشياء ؟ قال : بلى . قلت : ألا تظن أن هذا دليل واضح على أن وصف الناقة على هذا النحو قد أقحم فى قصيدة الشاعر إقحاماً ؟ قال : لا أدرى . قلت : فإن للشاعر قصيدة رائية طويلة[2] ، رويت فى ديوانه ، وقد عرض فيها للناقة فلم يكد يطيل ، وإنما أوجز فى وصفها كل الإيجاز ، وشغل عنها بما أهمه من الغزل والفخر . وأكبر ظنى يا سيدى ، أنه لم يحفل بالناقة فى داليته هذه ، ولم يقل فيها إلا البيتين أو الأبيات القصار ، أو أنه حفل بهذه الناقة ،

---

(١) فى الأدب الادب الجاهلى ، طه حسين ، دار المعارف . الطبقة الثانية عشرة ص ٢٢٦ .

(٢) من هذه القصيدة بيت دائر فى كتب اللغة والأدب ، وهو قوله :-

نحن فى المشتاة ندعو الجافلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

ولكن وصفة لها قد ضاع ، فطول الرواة حيث أوجز الشاعر ، أو عوض الرواة ما ضاع من قصيدة الشاعر . وأى رواة ؟ الرواة المتأخرون ، الذين كانوا يتخذون العلم والتعليم صناعة ويحرصون على أن يعلموا الشباب أوصاف الإبل ، وأوصاف الخيل ، وأوصاف السحاب ، وأوصاف السلاح وما يشبه ذلك ...[١]

ونحن نخالف طه حسين فى جميع ما ذهب إليه ؛ لأنه يشك فى نسبة هذه الأبيات إلى طرفة ، ولم يعط لنا دليلاً واحداً يسند شكه على الأقل ، وساق حجته الواهية – هكذا – بدون دليل ، والشك فى الشعر ، ورميه بالانتحال بهذه السهولة دعوة مرفوضة ؛ لأنها نابغة من ذوقه هو ، وذوق أساتذته من المستشرقين الذين لا يعرفون أسرار اللغة العربية وما فيها من إيحاء وقوة تصوير .

وكيف نستبعد توغل طرفة فى وصفة للإبل ، ونقول بأنه لم يقل سوى البيتين أو الأبيات القليلة .. ونحن نعلم أن طرفة صاحب فلسفة خاصة فى الحياة ، فنشأ عابثا لاهياً فى الجزيرة العربية ، وقضى فيها حياته ، فاندمج طرفة بالإبل – إذن – كان تحت مؤثرات البيئة ، وعوامل التربية والمعايشة قبل أن تكون ضرورة فنية أو تقليداً للموجة السائدة فى شعر الجاهليين آنذاك... من هنا كانت الإبل بعضاً من حياته ، وسلوكه الخاص ، ومزاجه ، فلا غرو أن يطيل فى وصفها محاولا احتواء معالمها ، فى قصيدة تحتوى على رغباته وآماله وحياته كلها ، وما يعترضها من تحديات .

فالدكتور " طه حسين " يرد طرفة فى شعرة على مزاجه الخاص ، فيخفف فى وصفه ، وينزل إلى السهولة التى يريدها .

وهذا غير معقول – فكما قلت – أن لطرفة وجهة خاصة وطبع مخصوص ومنهج منفرد يمتاز به شعره ، وكم كنت أود أن يدلنا الدكتور على بعض شعر

---

[١] حديث الأربعاء ، طه حسين ، ط. . الهيئة المصرية العامة للكتابة – مكتبة الأسرة ١٩٩٧م ، ص ٦٤ ، ٦٥.

لطرفة فيه السهولة التى تريحه ، وتدعم ما ذهب إليه .ولقد تناسى الدكتور " طه حسين " أن طرفة من " ربيعه " وهى تمتاز بحسن الوصف وقوته ، وروعة الأسلوب، وقوة الديباجة ، كما تناسى – أيضاً – أن الشاعر متأثر إلى حد كبير بهذه البيئة التى تحيط به من كل جانب ، فهو يعيش فى بيئة الناقة فيها هى عماد الحياة . فهل بعد وصف طرفة لناقة بهذه الدقة نستكثر عليه هذا الإبلاغ ، وأن يبلغ فى وصفه لها مبلغاً من علو الشعر وأقواه؟

نعم .. لم ينص أحد على مقدار ما صحت به الرواية عن " طرفة " إلا أن بعضهم ذكر أن ما يصح من ذلك أحد عشر شعراً ، فلا يميز من المنحول فى شعره إلا القليل ، وإلا ما جاءت بسببه رواية من الروايات ؛ كبعض القصائد التى نسبها له، غير أن طويلته – هذه – من شعره الذى لا خلاف فى نسبته إليه وإن كانت لا تخلو من تهذيب الرواة وزيادتهم فيها ، وهى التى فضله الناس بها وجعلوها واحدته ، وقالوا فيه من أجلها إنه أجودهم طويلة .

ويقول الأديب مصطفى صادق الرافعى بعد أن يقرر أنه لا خلاف فى نسبة هذه المعلقة إلى طرفة ، وأنها من أجود شعرة ".. وتكاد هذه القصيدة تكون ديوانه ؛ لأنها جمعت محاسن صنعته وضمت أطراف معاينة ، واطردت إطراء الماء ، وهى التى جعلت صاحبها أضرب شعراء الجاهلية مثلاً عند قتيبه فيما أجاب الحجاج حين كتب إليه يسأله عن أشعر الجاهلية وأشعر أهل زمانه ، وقد عد العلماء أكثر مخترعات طرفة منها[1] .

ويقول الأستاذ "العقاد " فى كتابه " اللغة الشاعرة " أنه ربما كذب الكثير من أخبار طرفة ، ولم تكذب قصيدته – هذه – ؛ حيث أنها تنم فى جملتها على خلائقه التى تنوب عن تلك الأخبار ، وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو التكذيب.[2]

---

[1] تاريخ آداب الرافعى ج٢٠٦/١ .

[2] اللغة الشاعرة ، عباس محمود العقاد ، مكتبة غريب ، ص١٣٦ .

٢.طريقة الوصف عند كل منهما :-

نجد أن طرفة فى وصفه يصف حيواناً يقف أمامه ، فهو يأخذ أحد الأجزاء ويصفه ، وما أن ينتهى من وصفه حتى ينتقل إلى جزء آخر ويتبع هذه الأجزاء فيصف أحدها وصفاً يصل به إلى ما أراده ، وجزءاً آخر يحاول أن يصفه بشكل أدق وأوسع فيتوسع فى وصفه .

وعندما يصف الناقة يصفها متسلسلاً يبدأ فى وصف الذيل ثم ينتقل إلى الفخذين ثم الفقار ثم المرفق ... وهكذا ، ولا ينتقل من الذيل إلى الرأس مباشرة .

وصور الناقة عنده جامدة خالية من الأحاسيس ، فهى ناقة تقف أمامه يوفرها صوراً أقرب للخيال بحيث لا نحس بها .

كما أن طرفة حرص على أن يوفر لناقته جميع ما وعته ذاكرته من أوصاف ، فهو على دراية واسعة بالنوق إضافة إلى ذلك استعانته ببعض الصور ممن سبقه من فحول الشعراء كامرئ القيس ، والملتمس . وهناك من يستدل بأن طرفة قد نظم قصيدته فى أوقات مختلفة مما ساعد على الخروج بها بهذا الشكل .

ولقد جاء وصف طرفة لناقته فى ثمانية وعشرون بيتاً ، وصفاً صريحاً ومباشراً .

-وأما كعب فهو يصف الناقة من خلال تلك الرحلة التى قام بها لمحبوبته " سعاد " ولا يصف أجزاءها مباشرة كما فعل طرفة ، إنما نجده يصف الناقة من خلال وصفه لأشياء لها علاقة بالناقة أو من خلال تشبيهه .

فنجده عندما أراد أن يصف عينى الناقة وصفها من حيث حدة البصر وشبه عينيها بعينى ثور وحشى ؛ ليثبت حدة البصر لدى ناقته .

لأن الثور الوحشى اشتهر بحدة البصر وليس كما فعل طرفة فى وصفة لعينى ناقته التى وصفهما بالمرآتين لصفائهما ومحاجزهما بالكهف لضخامتها.

وعندما أراد وصف عنقها وقوائمها وصف مقلدها بالضخامة وامتلاء المقيد . كما أن كعب فى وصفه للناقة ليس بالذى يصف أجزاء الناقة متسلسلا إنما يصفها متنقلاً بين أجزائها ليجعل من هذه الأوصاف دلالة على قوة هذه الناقة وسرعتها . وشدة احتمالها ؛ ليثبت أنها أهل لأن تحمله المحبوبته "سعاد " ويصور بعد المسافة بينهما بحيث لا تستطيع أى ناقة الوصول إليها . وقد يكون كعب قد ألقى هذه القصيدة على الرسول – صلى الله عليه وسلم – دون سابق تحضير لها كما اعتاد فحول الشعر ، ونستدل لذلك بتعرضه للأنصار لغلظتهم معه عندما عرفوا أنه " كعب بن زهير " الذى أهدر الرسول – صلى الله عليه وسلم – دمه .

٣ـ آراء النقاد فى وصف كل منهما للناقة :ـ

لقد نال وصف " طرفة " لناقته حظاً وافراً من النقاد القدامى والمحدثين ، فها هو " الأصمعى " : يعلق على البيت الذى وصف فيه طرفة قوة وصلابة رأس ناقته.

وجمجمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد

فقال " الأصمعى " : لم يقل أحد مثل هذا البيت كما لم يقل أحد مثل قول عنترة:

غرد سين ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجزم

وأما النقاد المحدثون فقد عابوا على طرفة إسرافه فى وصف ناقته ، بل وجردوه من شاعريته فى هذا الجزء من القصيدة ؛ لأنه جعل فيه ناقته بغير روح أو حيلة ، يقول الدكتور طه حسين :

فأما هذا الجزء من القصيدة فليس له حظ من حركة ولا حياة ، وإنما استحضر الشاعر أو الناظم ناقة من النوق ، فأوقفها أمامه ، وأخذ يحدق فيها تحديقاً ، ثم يصورها تصويراً دقيقاً ، فهو معنى بالناقة من حيث هى ناقة ، يكاد ينسى أنها أداة للسفر تجشم أهوال الصحراء ، فهو إلى أن يكون أستاذاً يسمى لك أجزاء الناقة

، ويعلمك ما يحمل على هذه الأجزاء من الصفات ، وما يستجاد لها من الخصال ، أقرب منه إلى يكون شاعراً يستوحى حياة نفيه ، كما يفعل غيره من الشعراء [١].

إنك تستطيع أن تنظر إلى وصف " لبيد " وغيره من الشعراء للنوق ، فسترى فى هذا الوصف حركة واطراداً ، وحياة قوية ، وسترى أن الشعراء يتبعون الإبل أو يسايرونها ، أو يشبهونها بحيوان كالنعامة أو البقرة أو حمار الوحش ، ثم يتبعون هذا الحيوان فى حركته واضطرابه يتخذون هذا وسيلة إلى استحضار الصور الطبيعية المتحركة . [٢]

ونحن نخالف " طه حسين " فى ذلك ، لأنه ليس ضرورياً أن يكون الشاعر متحركاً دائماً ،وليس بالطبع فرضاً أن يصف الحركة والحياة والنشاط للناقة ،فهو يستطيع أن يصور ناقته قائمة مستقرة ، كما أنه يستطيع أن يصورها متحركة نشيطة وهو مع هذا كله لم يقيد ناقته، ولم يعقلها ، وغنما هو تركها حرنة تذهب وتجئ ، وأخذ يصفها فى أثناء ذلك وأكسب – هذا الوصف – صورتها نشاطا وحركة ، ولا يغيب عنا الحالة النفسية التى كانت تسيطر على الشاعر ، فلعله امتطاها ومضى بها فى الصحراء ، ثم أخذ يصفها خلال ذلك ، وأغلب الظن أنه مضى بها ثم نزل عنها، وأخذ يحدق فيها ، وينظر إليها نظرة الفليسوف المتعجب المنشغل بها عما عداها من النعام ، والبقر وحمر الوحش ..

غير متناسى استخدامها ، ووصف حركتاه ، إلا أنه ركز على وصف أجزائها، مضمناً هذه الأجزاء حركة الناقة عند اجتماعها ، معبداً الطريق لغيره من الشعراء فى وصف الناقة .

أما كعب بن زهير فقد نالت قصيدته " اللامية " كثيراً من الأهمية لكونها أنشدت فى حضرة المصطفى -ﷺ- بيد أنهم أغمضوا الطرف عن الجزء الذى وصف فيه الناقة ، وكذلك لأن وصفه للناقة كان غير مباشر مضمناً وصفه هذه

---

[١] شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٧٢ .

[٢] حديث الأربعاء ص ٦٥،٦٦.

الغاية من استخدام النوق القوية ، ألا وهى تقريب المسافة بينه وبين محبوبته ، فالناقة بهذه الحركة السريعة وما يتميز به من قوة ، وقدرة على السير تستطيع إلغاء المسافة بينه وبين موضوع حبه .

ويجب – أيضاً – ألا ننسى أن الناقة التى يصفها كعب ، ويتحدث عنها فى قصيدته ، – فى نظر بعض النقاد [١]– ليست شيئاً موجوداً يصفه ، وإنما هى شئ يفترض وجوده لتحقيق غايته ، وليس وصفه لناقة إلا مقدمة كالمقدمة الموسيقية الحزينة لمشهد مأساوى .

٤- الغرض الذى استخدم كل منهم الناقة لأجله :

لقد استخدم " طرفة بن العبد " الناقة لغرضين ، جعل أحدهما مدخلاً لوصفه لناقته ، والآخر يختتم به وصفه لناقته – أيضاً – واستعداداً للخروج من وصفه إلى غرض آخر ، ونجد الأول فى قوله :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

- **فالغرض الأول** :أنه يمضى همه وحزنه على ناقة ضامرة سريعة ، تصل سير الليل بالنهار فهى وسيلة يقضى عليها همه وحزنه .

- أما الثانى فى قوله :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ألا ليتنى أفديك منها وأفدى

فالغرض الثانى : هو مضى طرفة فى أسفاره ، واقتحاماً المخاطر التى يشفق عليه منها الصديق فيفتديه ، ويتمنى له النجاة منها على مثل تلك الناقة التى بالغ فى وصفها وكأنه يصور خيالاً ، ويختتم وصفه لناقته بأنه يستخدم هذه الناقة صاحبة هذه الأوصاف فى أسفاره الطويلة الشاقة ؛ لأنه سيكون بمأمن معها .

---

(١) مديح الرسول فى فجر الإسلام . دكتور : صلاح عيد ، ص٦٨،٦٩/ ط. دار المعرفة .

وأما " كعب بن زهير " فنجده يستخدم ناقته لغرض واحد ، وهو الوصول إلى حبيبته التى تسكن بعيداً عنه ، وجعل من هذا الغرض مدخلاً لوصف ناقته ، وذلك فى قوله :

أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلاالكرام النجيبات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة ... لها على الأين إرقال وتبغيل

فحبيبته " سعاد " تسكن بأرض بعيدة لا يصل إليها إلا إبل كرام الأصل قوية سريعة ، ولا يكتفى بهذا الوصف للإبل التى تأخذه لحبيبته إنما يزيد فى وصفها فهى صلبة وعظيمة يحدد سرعتها فهى بين إرقال وتبغيل ، وهما ضربان من سرعة الإبل ليدل على إجهاد الناقة وصبرها وتحملها طول الطريق فهى ما تزال مسرعة .

مما سبق نجد أن طرفة استخدم الناقة لغرضين ، أحدهما معنوى ، وهو أنه يمضى الهم والحزن على هذه الناقة ، فهو يلجأ إليها لكى تزيل عنه الهم وتفرجه وجعل هذا الغرض مدخلاً لوصفه للناقة .

وقد أحسن المدخل لوصف الناقة ، بجعله إياها شيئاً ذا قيمة عالية لا يقتصر استخدامها عنده على الشئ الحسى فقط ، بل إنها تفرج الهم ، وتزيل الكرب .

وأما الغرض الثانى فإنه حسى ؛ حيث جعل ناقته وسيلة تنقله فى أسفاره الطويلة الشاقة ، وهو معها بمأمن ، وجعل ذلك الغرض الحسى مخرجاً من وصفه للناقة ، وقد أبدع فى استخدامه الغرضين ، فهو أشبه بالرسام الذى رسم صورة ، وحدد لها إطاراً من لونين لكى يحدد معالم تلك الصورة للرآئى .

وأما كعب بن زهير فالغرض عنده استخدام الناقة حسى فقط ، ألا وهو الوصول بها إلى حبيبته " سعاد " التى تقطن بأرض بعيدة ، ولا يصل إليها إلا عن طريق هذا الإبل الكرام التى تتصف بالقوة ، والسرعة ، ومواصلة السير ،بيد أن هذا الغرض الحسى ليس إلا مقدمة كالمقدمة الموسيقية الحزينة لمشهد مأساوى ، إذ يبلغ الشاعر أنه مقتول لا محالة ، وذلك من جهة هؤلاء الذين يسعون بجانب هذه الناقة المفجوعة فى ولدها .

يسعى الوشاة بجنبيـــها وقولـــهم إنك يا ابن أبى سلمى لمقتـــول

فنجد أنه استطاع أن يبدأ فى وصفه للناقة بغرض حســـى ، وأنـــه أحســـن الخروج من وصفها بنفس الغرض الذى بدأ به .

٥- وصف سرعة الناقة عند كل منهما :

إذا كان طرفة يقضى على ناقته فليست ناقة عادية إنما هى ناقة مســـرعة ، تصل الليل بالنهار ،كما فى قوله :

وإنى لأمضى الهم عند احتضـــاره بعوجاء مرقال تـــروح وتغتـــدى

ويشبهها فى سرعتها بالعتاق النجيبات ، بل أنه لا يقف عند هذا الحد فـــهو يصف أجزاء ناقته مبيناً علاقة بعض تلك الأجزاء بسرعتها ، كما فى وصفـــه لأنـــف نافقته حين يقول :

وأعلم مخروت من الأنـــف مـــارن عتيق متى ترجم به الأرض تـزدد

فهو يربط بين وصفه لأنف الناقة وبين سرعتها ، فهى عندما ترمى بأنفـــها ورأسها الأرض تزداد فى سيرها وسرعتها .

ولا يكتفى بوصفه هذا بل يضيف إليه إضافة تجعل هذه الناقة مطيعة له تفعل ما يريده فإن شاء أسرعت وإن شاء لم تسرع ، وإن شاء جعل سرعتها وسطاً ليست بالمسرعة ولا بالمتأخرة ، كما فى قوله :

وإن شئت أرقلت وإن شئت ترقـــل مخافة ملوى مـــن القـــد محصـــد
وإن شئت واسط الكـــور رأســـها وعامت بضبعيها نجـــاء الحفيـــدد

وأما كعب فهو يذهب لحبيبته سعاد بالأرض البعيدة التى تسكنها علـــى إبـــل كرام قوية شديدة الاحتمال فى سيرها السريع ، فهى تزيد من سرعتها ،وتكـــون مـــا بين الإرقال والتبغيل وهما ضربان من السرعة – كما فى قوله :

أمست ســـعاد بـــأرض لا يبلغـــها إلاالكـــرام النجيبـــات المراســـيل
ولـــن يبلغـــها إلا عذافـــرة لها على الأيـــن إرقـــال وتبغيـــل

ثم يقول :

تخدى على يسرات وهـــى لاحقـــة ذوابـــل مســـهن الأرض تحليـــل

فناقة كعب تسترخى فى سيرها وتلحق النوق السوابق فهى ترفـــع قوائمـــها عن الأرض بسرعة بل تكاد لا تمس الأرض لفرط السرعة وشدة المبالغة بل هى فـــى غاية السرعة هذا فى حالة الاسترخاء فكيف تكون هذه الناقة فى حالة سرعتها ؟

نجد أن كلاً منهما استخدام الناقة لغرض يحتاج فيه لناقـــة قويـــة وســـريعة ليصل بها إلى مراده ثم تطرق كل منهما لوصف أجزاء من الناقة ، ويربط بين هـــذه الأجزاء وبين سرعتها إلا أن طرفة يزيد فى أمره وهو أن ناقته طوع أمره إن شـــاء أسرعت وإن شاء لم تسرع وإن شاء كانت وسطاً .

٦- التشابة فى إحدى الصور :-

حرص طرفة على وصف ناقته برعيها وقت الربيع ليكون أوفى للحمها مـــع صواحب لها ، فإذا رأت صواحبها ترعى قربها كان ادعى لها بالرعى وزيـــادة فـــى سمنها ، كما فى قوله :

تربعت القفين فى الشول ترتعـــى حدائق مولـــى الأســـرة أغيـــد

ونجد هناك صورة مقاربة لها فى وصف كعب لناقته ، تلك الصـــورة التـــى يصف بها سرعة يديها ، ويشبهها بسرعة حركة ذراعى امرأة تلطم وجهها لفقدهـــا طفلها ، فجعلها بين صواحب لها يبكين لفقدهن أولادهن ، فكان أدعى لـــها بزيـــادة سرعة لطمها وجهها كم فى قوله :

كان أوب ذراعيها وقـــد عرقـــت وقد تلفـــع بـــالقور العســـاقيل
شد النهار ذراعاً عيطـــل نصـــف قامت فجاوبـــها نكـــد مثـــاكيل

نجد فى هاتين الصورتين تشابها ، فطرفة جعل ناقته ترعى بين صويحبـــات لها ، وهذا أدعى لها بالرعى ، فكلما رأت صويحباتها زادت من رعيها فزاد سمنها ، أما كعب فشبه ذراعى ناقته بسرعة ذراعى تلك المرأة التى فقدت ولدهـــا ، وجعلـــها

بين صويحبات لها يلطمن وجوهن لفقدهن أولادهن فتزيد من سرعة لطمها لوجهها ، ويكون ذلك تشبيهاً لسرعة ناقته .

٧- وصف الذيل :

هذا الجزء من الناقة (وهو الذيل) يصفه كل منهما وصفاً مبالغاً فيه ،ويمتاز طرفة بالمبالغة والإغراق ، فكأنه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البلور ، فيقول واصفاً ذيل ناقته :-

تريع إلى صوت المهيب وتتقى ... بذى خصل روعات أكلف ملبد
كان جناحى مضرحى تكنفاً ... حفافيه شكا فى العسيب بمسرد
فطوراً به خلف الزميل ، وتارة ... على حشف كالشن ذاو مجدد

فقد وصف ذنب الناقة بكثرة الهلب ، وهو الشعر الكثير ، فشبهه بجناحى النسر ، وأنها تستخدم هذا الذيل حماية لها من ذلك الفحل ، وكأنه قد غرز به جناحى نسر أبيض طويلين ثبتاً على جنبية أو تضرب بهما بشدة مكان الرديف تارة ، وأخرى على ذلك الضرع الذابل .

وأما كعب فهو يشبه هذا الذيل بعسيب نخل وبه شعر ، كما فى قوله :

تمر مثل عسيب النخل ذا خصل ... فى غارز لم تخونه الأحاليل

فهى تمر بهذا الذيل على ضرع لم تنقصه مخارج اللبن، بكونها لا تحلب فيكون أقوى لها على السير، وأجدى لها بالسرعة .

فكلاهما وصف الذيل بصفة مبالغ فيها ؛ إلا أنهما وصفاه فى حالة واحدة وهى استخدام الذيل للضرب به على ضرع جاف ؛ ليدل على أنها لم تحلب ، ويدل على سرعة السير .

ويزيد فى الوصف طرفة عندما يجعل الناقة تضرب الرديف تارة ، وأخرى بذلك الضرع .

ولعل مبالغة طرفة فى الوصف ليست بحسنة ، لأنها تحسن – أى المبالغة – إذا لم يكن التشبيه منكشفاً هذا الانكشاف ، فيكون فى إحدى جهات سبب من الأسباب التى يصح أن تتعلق عليه المبالغة ؛ وسيأتى هذا فى موضعه مفصلاً .

٨- خصائص الأسلوب عند كل منهما :-

أ- المستوى اللفظى والتراكيبى :

لا شك أن قصيدة "طرفة " كاملة من ناحية اللغة والموسيقى والمعنى ، وتدل دلالة قاطعة على تطور ناضج عند الشاعر فى مجال التعبير والتصوير الأدبى الممتاز.

إلا أنه كان معقد التراكيب ، مبهم المعنى ، غريب اللفظ ، ونجد ذلك كله واضحاً فى معلقته فكلها محشوة بغريب اللغة ، وخاصة فى أبيات وصفه للناقة . (١)

ولعل هذه الغرابة فى الألفاظ بالنسبة لمثلى من هؤلاء المحدثين الذين لم يألفوا أمثال هذه الكلمات ، أما بالنسبة لطرفة ، فالكلمات مألوفة لديه ولدى من يعايشونه من العرب ، ومن يقرءون شعره من الخاصة ، ومن يسمعونه من العامة .

وتستطيع أن تفهم وحدك هذه التراكيب إذا استعنت بمعجم لغوى يلقى لك بعض الضوء عليها ، ويقربها إلى ذهنك تقريباً تحس معه لذة الشعر وجمال الوصف وروعة الأسلوب .

ولنا أن نقول إذن : إن الكلمات غريبة ، والتراكيب حوشية ، ومن الممكن أن نستعين على ذلك بمعاجم اللغة أو كتب الأدب المشروحة .

وليس لنا أن نقول : وليست هذه الناقة التى تحول بينك وبين المعانى الرائعة والصور الجميلة ناقة طرفة فى أكبر الظن ، وغنما هى ناقة قد دست عليه

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٧٠/ط .

دساً ، وزجت في حظيرته زجاً ، ليست منه ، وليس منها في شئ ، وأن هذه الألفاظ الغريبة هي من وضع علماء اللغة . [٢]

ورغم ذلك فإنا لو تأملنا أبيات طرفة (في وصف الناقة) وأمعنا التأمل فيها لألفيناها ذات طابع خاص ، فهذه الغرابة في اللفظ – بالنسبة لنا – تعطينا انتباهاً خاصاً بل وتجذبنا إليها دون أن نشعر ، ولألفينا – أيضاً – عباراته رصينة ، محكمة النسج وكل ذلك جعل التركيب فحلاً ، حتى ظن أنه معقد مبهم.

هذا وإن كنا قد رأينا الألفاظ عند الشاعر غريبة جداً ، طواها الزمان ، وسكت الشعراء عن ترديدها ، فقد كانت مألوفة لعده ، فتصرف فيها (طرفة) تصرف المعتز الفخور .

وطرق بها هذه المعاني النادرة ، ورسم أجزاء من الحيوان لم يكن بدمن وصفها بهذه المفردات .

ولعل هذه الغرابة رجعت – أيضاً – إلى عدم حب " طرفة " للسرقة والانتحال ، فأراد أن يأتي بالجديد دائماً ، في اللغة ، والأسلوب ، فلقد قال عن انتحال الشعر :

ولا أغير على الأشعار أسرقها غنيت عنها ، وشر الناس من سرقا!
وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقاً [١]

ومهما يكن من غرابة في اللفظ أو تعقيد في التركيب ، فقد كان الشاعر يملك ثروة كبيرة من الألفاظ والعبارات ، وكان يحسن التصرف فيها ، ويجيد وصفها ، وصنعها في دقة وإحكام ، كما يدل – ذلك – على أنه كان على علم بما تتضمنه هذه الكلمات من معان وأفكار وتراكيب .

---

[٢] انظر ما كتبناه عن النحل في هذه الأبيات ص .

[١] تاريخ الأدب العربي ،د. عمر فروخ ج١/١٣٧،١٣٨ دار العلم للملايين – بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨١م.

وأما " كعب " فإنه تسود أبياته سهولة فى التعبير ، ووضـــوح فـــى اللفـظ والفكرة ، لا يخفى على المتذوق ، أما السهولة فمن هذا اللفظ الذى خلا من التعقيـــد والتنافر والإبهام والوضوح حاصل – ايضاً – من عرض الأفكار عرضاً سليماً علـت كثير من السلسل .

ومما يدل على عظمة أسلوبه وروعته ، وعظم شأنه بقاء قصيدتـــه حجيـــة خالدة إلى اليوم بعد مرور هذا الزمن الطويل ، منذ نشأتها إلى عصرنا الحاضر ، كمـا أن الأدباء كانوا ومازالوا مثله أو قريباً منه قوة وروعة ، وجمـــالاً ، وصدقـــاً فـــى التعبير والتصوير .

ولعل كعب – برغم أنه شاعر مخضرم – إلا أن شعره يوشك أن يكون علـى وتيرة واحدة فى جاهليته وإسلامه ، ذلك لأنه كان راوية لأبيه ، وزهير – كما نعلـم – كان ينقح شعره ويهذبه حتى اشتهر بالحوليات ، فجاء شعر كعب مصفـــى جـــزل اللفظ قوى التركيب محكم النسج ، متجاوب الفقرات متساوق العبارات مع الزهد فـــى الكلمات الضاربة فى قيافى الغرابة – خاصة فى أبياته التى وصف فيـــها الناقـــة – ولعل منهجه هذا لم يتغير فى الجاهلية أو فى الإسلام.

وفى النهاية يتضح – لنا – أن أبيات طرفة التى وصف فيها ناقتـــه كلـــها محشوة بغريب اللغة وأنها معقدة التركيب ، مبهمة المعنى ، (وقد وضحنا علة هـــذه الغرابة) ، أما كعب فهو على النقيض من شعر طرفة، فقد جاءت أبياته التى وصـــف فيها ناقته واضحة اللفظ والمعنى تمتاز بالسهولة فى التعبير ، مما يجعلـــها ســـهلة الفهم بدون الاحتياج إلى المعاجم =- فى أغلب الأحيان -.

ب: المستوى البلاغى :-

وليس من شك أن قسطاً كبيراً من روعة قصيدة طرفة وجمـــال أســـلوبها ، وأناقة معناها مصدره الألوان البيانية التى اشتملت عليها من تشبيه.. وغيره.

وقد جاءت هذه التشبيهات فى موضعها ، فهى كلها مستمدة من البيئة التى تحيط به ، واعتمد الشاعر عليها ليقرب بها المعانى إلى الأذهان .

ولقد استعان – أحياناً – فى تصويره لناقته بأشياء خارجة عن البيئة ، فيشبهها بها ، كقنطرة الرومى التى شبه ناقته فى ضخامتها بها، وكقرطاس الشامى الذى شبه خد ناقته به .

ولقد شبه "طرفة " كل عضو من أعضاء ناقته بشئ وقع عليه حسه كالنسر .. ومشيد القصر .. والقسى .. والقنطرة .. والقرطاس الشامى .. والجلد المدبوغ .. والمرآة وغير ذلك من التشبيهات التى أتى بها .

وهذه المشبهات كلها فى متناول خياله أو فى ملك نظره يمد يه إليها حين يريد، وقد بسطها بسطاً مادياً حسياً ، فتصور أجزائها شبيهه بهذه الأشياء ولعله – أيضاً – مهد وعبد الطريق لغيره من الشعراء فى وصف الناقة والإلمام بهذه التشبيهات المادية ، فأوغلوا فى التصوير ، وساروا على سننه [1] .

ويمتاز طرفة فى تشبيهه بالمبالغة والإغراق ، فكأنه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البلور .. ولعل مبالغته فى هذه التشبيهات ليست بحسنة ؛لأن المبالغة إنما تحسن إذا لم يكن التشبيه منكشفاً هذا الانكشاف فيكون فى إحدى جهاته سبب الأسباب التى يصح أن تتعلق عليه بالمبالغة .

أما كعب فقد كان مقلاً من التشبيهات ، لأنا لو تأملنا أبياته وأسلوبها لألفيناها جزلة اللفظ رصينة العبارة ، محكمة النسج ، يجنح فيها إلى الإيجاز ، ويقل فيها من المجاز، فقد يأتى برائع الاستعارة ، وبديع الإشارة ، ودقيق الكناية ، وبما هو جليل الغاية ، وإن شئت فأنظر إلى قوله :-

نياحة رخوة الضبعين ليس لها ولما نعى بكرها الناعون معقول

---

[1] وهم كثير لا يحصون ، وقد عرضنا لبعضهم فى بداية البحث .

فناقته فى تعبها وتشبه المرأة التى ينعى لها ولدها البكر ، ومنفى سن بين الشباب والشيخوخة ، فلا ترجوا الولد مما أطار صوابها ،وكاد يذهب ، فهو تدق صدرها وتشق ثوبها جزعاً وألماً ، فهذه الثكلى شبهت بها الناقة تمزق ثيابها ، وتقطع مدرعتها فيبدو نحرها وترقوتها .. وكفاها لا تألوان تمزقان وتقطعاً ما تجدانه على جسمها ؛ لأنها فى ذهول وغيبة من العقل .

وإن أردت دقيق الكناية، فأنظر إلى قوله :-

يمشى القراد عليها ثم يزلقه متنها لبان وأقراب زهاليل

فهذا البيت كناية على صحتها وقوتها وحيويتها وسلامة بنيتها ...

وأما التشبيهات – فكما قلنا – لقد جاءت فى الأبيات بمقدار ، ولكن قيمتها الفنية عالية وإن شئت فأنظر إلى روعة التشبيه فى الأبيات التالية :-

عيرانة قذفت بالنحض من عرض مرفقها عن بنات الزور مفتول
كأنما فات عينيها ومذبحها من خطمها ومن اللحيين برطيل
تمر مثل عسيب النخل ذا خصل فى غارز لم تخونه الأحاليل

فهو يشبه أنف هذه الناقة بالحديدة الطويلة التى تنقربها الرحى ، ووجه الشبه : الصلابة والمتانة والإستواء ، والمقصود بهذا التشبيه رسم صورة جمالية لأنف الناقة وما حوله .

ويشبهها – أيضاً – بالعسيب (الجريدة المستقيمة الخالية الخوص) وأنها تضرب ذيلها على ضرعها الخالى من اللبن ... وكل هذه التشبيهات مستمدة من بيئة الشاعر ، وهى قريبة منه معروفة له ولسامعيه ، بخلاف طرفة فقد استعان – كما قلت – ببعض التشبيهات الخارجة عن البيئة كقنطرة الرومى .. الخ ، وأنظر إلى هذا الجناس الناقص فى قوله:

ولن يبلغها إلا عذافرة فيها على الأين إرقال وتبغيل

فبين (تبغيل ويبلغها) جناس ناقص ، ومقاربة فى المعنى .

ولقد زهد كعب – فى ألوان الخيال والمجاز .

جـ المستوى القاموس الشعرى (الموسيقى) :-

لا شك أن اللغة التى تعبر عن الحالة الزائدة للاستشارة لابد أن تشمل على عناصر تشترك معها فى خلق الإمتاع بالوصف والانسجام الموسيقى ، وإذا كنا قد وازنا بين الشاعريين (طرفة – كعب) – فيما مضى – من ناحية اللغة ، وكشفنا عن أبعادها عند كل منهما، وبعض أنماطها وخصائصها ، ودورها فى عملية التصوير ، فإنا – هنا – سوف نركز على الجانب الذى يشيع الانسجام فى نفوسنا . ونعقد بينهما موازنة سريعة ، لما فى الموسيقى من قدرة على السمو بالأرواح . والتعبير عما يعجز التعبير عنه .

ولعل إلقاء الضوء على الإيقاع والوزن (الموسيقا الداخلية والخارجية) عند كل منهما لما لهما من أثر مباشر على الإبداع الشعرى – خاصة الوصف – بكونهما عنصريين هامسين من عناصر الوصف (التصوير) عند كل منهما ، وقد حققا (طرفة – كعب) هذا الغرض – وصف الناقة – من خلال عنصرى الموسيقى الإيقاع والوزن " .

الإيقاع والوزن:-

لقد جاءت أبيات " طرفة " تحمل نغمة عذبة لا تخفى على المتذوق ، وهذه النغمة أعنى بها هذه الرنة الموسيقية التى تصاحب الأبيات فتجعلك تتذوقها من أجل هذه العذوبة فى اللفظية وإن بدا لنا فيها شئ من الغرابة .

ولقد جاءت أبياته على بحر الطويل [١] { //٥/٥ فعولن //٥/٥/٥ مفاعلين } ولعل هذا البحر هو الذى ساعد طرفة على أن يطول فى وصفه لناقته حتى أن وصفه جاء فى ثمانية وعشرين بيتاً ، وعروض هذه الأبيات مقبوضة [٢] .

فلقد قيل فى سبب تسمية هذا البحر بهذا الاسم " الطويـــل " ؛ لأنـــه أطـــول الشعر ؛ لأنه ليس فى الشعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفاً غيره[٣].

وهناك نغمة داخلية لعل أهميتها تكمن فى كون الشاعر يـــؤدى مشـــاعره ، ويصف ناقته بلون من ألوان الكآبة المستحبة ، التـــى تذكـــر بشـــعر الرومنطقييـــن الغربيين الذين غنوا أحزانهم وآلامهم ، وجعلوها على معظم الشفاه والألسن ، كمـــا فعل (الفرد دو موسى) فى قصائده المشهورة تحت اسم " الليالى" وفيها يتحدث عـن عذابه واشجانه وحبه المبرح ، وعن موته ، وأن تبقى حبيبته وفيه تنشد على قـــبره بعد مماته بعض أبياته .

ولعل هذا التشابه الذى يقصده ليس من أبيات وصف الناقة ، وإنما يكمن فى الأبيات التالية لهذا الوصف ، أبيات فلسفته فى الحياة والموت ، وما أبيـــات وصفـــه للناقة إلا مقدمة موسيقية لهذه الفلسفة .

ولعل الإنسان بطبعه يستلذ الألم المغنى ، وما طرفة إلا إنسان عزف أحزانـــه وأشجانه مباشرة ، وفرج عنها بوصفه لناقته ، عزف كل هذا على قيثارة من شـــعر رقيق لم تزل أصداء أوتارها تضرب فى آذان الدهر حتى يومنا هذا .

وإذا كان الرمز يكتسب دلالاته المتنوعة –خلال النصر الواحد – كرمز الإبل – هنا مثلاً – فأولى به أن تتعدد دلالاته من خلال وجوده فى شعره كله .

---

[١] فى ديوان طرفة ثمانى قصائد على بحر الطويل ، وثلاث على الرمل وواحدة على المديد ، وأربع على الكـامل وواحدة على كل من الوافر والسريع ، فقصائد البحور الخفيفة نصف قصائد البحور الطويلة .

[٢] القبض : حذف الخامس الساكن (ثانى سبب خفيف) مفاعلين //٥/٥/٥ تصير مفاعلن //٥//٥ .

[٣] اللباب فى علم العروض والقافية ص ٩٣ للأستاذ : كامل السيد شاهين – وموسيقى الشعر العـــربى ، د/ صابر عبد الدايم ، ص ١٠٨ ، مطبعة الخانجى .

وقد أكثر طرفة من هذا الرمز – الإبل – فأمعن فى وصفها ؛ لأنـــه جعلـــها شفاءً نفسياً له .

وأستطيع الجزم بأن الموسيقى –هنا – سابقة للمعنى فى الأبيات التاليـــة (الفخر – وفلسفة الموت) وإنما حركة (بحر الطويل) هـــى التـــى ســـاعدت علـــى التجاوب والتفاعل مع الأبيات اللاحقة ، والسابقة ، وأن تلك هذه الأبيات – وصـــف الناقة – تابعة للمعينين .

وبالتالى كانت درجة تقيظنا للموضوع لا تقل عن درجـــة تيقظنـــا للإيقـــاع الشعرى والجرس الموسيقى من أول وهلة ، وكذا تغير النغمة .

وبهذا أصبح شكل الأبيات التى تصف الناقة مرناً مرونة المعنى ، وفى حدود هذه المرونة جاءت الأبيات كمقدمة فى الإسهام فى التصوير الشعرى عند طرفة .

أما كعب فقد جاءت أبياته على بحـــر البســـيط (/٥/٥//٥مســـتفعلن /٥//٥ فاعلن) وهو – أيضاً – من الأبحر ذات التفعيلتين – فلم يختلف كثيراً عن طرفة – ولعل هذا البحر ساعد – أيضاً – كعب على السهولة ، واليسر ؛ حيث أنه قيل فـــى سبب تسميته أن الأسباب (وهى أقل وحدة عروضية) قـــد انبســـطت فـــى أجزائـــه السباعية ، فحصل فى كل جزء من أجزائه السباعية سببان ، أو لانبســـاط الحركـــات فى عروضه وضربه . [1]

ولعل " كعب " قد وافق " طرفة" ؛ لأنه استخدم مثله بحراً ذا تفعيلة ثنائيـــة ، وهذه الأبحر الثنائية تقوم على أساس التفاعيل المتجاوبة والمتنوعة ،وتتمـــيز عـــن الأبحر ذات التفعيلة الواحدة بأنها تتابع فى اختلاف من حيث الشدة والزمـــن ، فلـــو بدأت " فعولن //٥/٥ " فى الطويل – مثلاً – (وهى تفعيلة طرفة)فإنها لن تســـتمر "فعولن //٥/٥ " طوال البيت ، وإنما تعقبها نغمة أخرى أطول منها زمناً واقل شـــدة ،

---

[1] موسيقى الشعر العربى د/ صابر عبد الدايم ، ص١٠٤ .

ثم لا تلبث أن تتبدل مفاعلين //٥/٥/٥ لشدة مفاجئة وزمن أقصر فى فعولن //٥/٥ وهكذا فى بقية البحور من هذا النوع .

ولعل " كعب " – أيضاً – زاد عن "طرفة " هذا الإيقاع الكائن فى تكرار النظائر الصوتية في حسن تقسيم ، ومحاولة الإشباع فى الحرف قبل الأخير (المراسيل – وتبغيل – مجهول – والميل) وكذا يزداد الإيقاع حسناً عن طريق النغمة الخاطفة التى تسبق هذا الحرف – فى أغلب الأحيان .

وكل ذلك يدل دلالة واضحة على أن المعنى مرتبط بهذه الإيقاعات

وأستطيع – هنا – أن أجزم بأن الموسيقى سابقة للمعنى ، فليس هذه الأبيات إلا مقدمة كالمقدمة الموسيقية الحزينة لمشهد مأسوى ، إذ يبلغ الشاعر أنه مقتول لا محالة ، وكل ذلك يأتى من جهة هؤلاء الذين يسعون بجانب هذه الناقة المفجوعة فى وليدها .

ولقد جرب كعب مقدرته فى البراعة فى ترديد الأصوات المنسجمة – بخلاف طرفة – فى بناء موسيقى خاص يتوافر فيه مهارة النظم للكلمات ، وبراعة ترتيبها، وتنسيقها ؛ بحيث تبلغ مبلغاً الذى أراده الشاعر لها .

ذلك النسق الخاص لتركيب الأصوات عند" كعب " هو ما يكمن فيه سر إبداعه فى هذه الهندسة الموسيقية ، والتقفية الخارجية فى هذه الأبيات (حرف اللام) ،جزء مكمل للتقفية الداخلية فيها .

ولقد يكتفى البعض بهذا التأثر الفزيولوجى الذى يرجع إلى قيمة الألفاظ الصوتية ليس إلا . ولقد يتهيأ لهذه الحروف إذا تم تألفها وإملاس إيقاعها أن تحدث بتكرار القراءة الجهرية فى القارئ انفعالاً داخلياً ينبثق عن جوه والذى يثبت الشعر فينا .

إنما هى الحالة الشعرية بحد ذاتها ، وهى تبلغنا عن طريق الإيحاء والإبهام والغناء الموقع بنوعى خاص فإذا روعى التناسب والإيقاع وهى روح الشعر كان للقصيدة تأثير إلهى حدسى يتعدى الوعى ويخضعه . [١]

ونحن لا نذكر- ولا يستطيع أحد أن ينكر – أثر الموسيقى فى خلق وإبداع هذا التصوير ، ولكنها والأمر كذلك – إن تتفق مع المعنى الوصفى فسوف تبقى قناً مستقلاً ، وأن استعمل كلمات الوصف ،والشعر أعم منه وأجل وأخلد أثراً .

وبهذا يتضح – لنا – أن الموسيقى فى هاتين القصيدتين عنصر هام ، ولكنه لابد وأن يتفاعل مع العناصر الأخرى المكونة للتجربة الشعرية ، لكى تحدث أثراً فى خلق الاستجابة النامية ، وهذا ما نجده بالفعل عند " كعب بن زهير " .

---

[١] الرمزية والأدب العربى الحديث . د. أنطون غطاس كرم ، ط . دار الكشاف – بيروت ١٩٤٩ ص٨٢ .

ثانياً : وصف الناقة عند كعب بن زهير : (بحر البسيط)

أمست سعاد بأرضا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل [١]

ولن يبلغها إلا عذافرة ... فيها على الأين إرقال وتبغيل [٢]

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت ... عرضتها طامس الأعلام مجهول [٣]

ترمى النجاد بعينى مفرد لهق ... إذا توقدت الحزان والميل [٤]

ضخم مقلدها فعم مقيدها ... فى خلقها عن بنات الفحل تفضيل [٥]

غلباء وجناء علكوم مذكرة ... فى دفها سعة قدمها ميل [٦]

---

[١] الطبعات لشعر كعب بن زهير ، وخصوصا قصيدته " بانت سعاد " كثيرة ، راجع : (GAL SUPPI. 168 - 69).

- والقول المراد من " بانت سعاد " ، تأليف محمد محسن المرصفى - القاهرة ؛ بلا تاريخ.
- وشرح قصيدة " بانت سعاد " لأبى محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، القاهرة (حسن مصطفى ١٢٩٠هـ) .
- مصدق الفضل ، شرح قصيدة " بانت سعاد " ، تأليف شهاب الدين أحمد ابن عمر الهندى ،ط. حيدر آباد ١٣٥٣ه؟.
- شرح ديوان كعب بن زهير للسكرى (تحقيق عبد العزيز الميمنى) دار الكتب بالقاهرة ١٣٥٩هـ = ١٩٥٠م .
- ديوان كعب بن زهير (فى طرف أدبية ، جمعها عمر السويدى ، كارلو لاند برغ) طليدن ١٣٠٣-١٣٠٦هـ.
- كارل بروكلمان ١: ٣٢-٣٣ ، المحلق ١ :٦٨ - ٧٠.

• لا يبلغها : لا يوصل إليها ، أو : لا يقر بها للمتجه إليها ، والإبلاغ والتبالغ الإيصال ، والاسم منها ، البلاغ .

- العتاق : جمع عتيق وهو الفرس الجواد الرائع ، وقيل : هى النجائب من النوق .
- النجيبات : جمع نجيبونجيبة ، وهى الناقة الكريمة ، وهى العتاق التى يسابق عليها .
- المراسيل : جمع مرسال وهى الناقة النشيطة الخفيفة السير الجادة فيه .

[٢] العذافرة : القوية الشديدة الغليظة من النياق والإبل والجمال .

- الأين : التعب ، والوصب والنصب .
- الإرقال : مصدر أرقل ؛ إذا أسرع فى السير * التبغيل : توسيع فى الخطوة .

وبين تبغيل ويبلغها جناس ناقص ، ومقاربة فى المعنى .

[٣] النضاخة : من النضخ وهو شدة فوران الماء - الذفرى : من جميع الحيوانات : ما كان بين المقذ ونصف القذال ، والمقذ ما بين الأذنين من الخلف ، والقذال : جماع مؤخر الرأس - العرضة : الهمة - وطامس : بعيد - والإعلام : أى الجبال الطويلة .

[٤] ترمى : تقذف - والنجاد : المرتفعات - مفرد:المتفرد من القطيع ، والمراد به - هنا - ثور الوحش الذى تأخر عن قطيعه فأخذ يبحث عنه فى حذر وقلق - لهق : شديد البياض - الحزان : جمع حزيز وهو ما غلظ من الأرض وانقاذ - الميل : جمع ميلاء وهى الكثب الضخم من الرمل .

[٥] المقلد : مكان القلادة - فعم ممتلئ بالشحم واللحم - مقيدها موضع القيد فيها وهو الرسغ - بنات الفحل : أترابها من النوق .

[٦] وجناء : مرتفعة منقادة - علكوم : شديدة عظيمة السنام - مذكرة : مشابهة للذكر فى صلابة عظامها وقوة جهدها - الدف : السير اللين للإبل .

وجلدها من أطـــوم مـــا يؤنســـه ... طلح بضاحية المتنين مـــهزول [١]

حرف أخوها أبوها من مهجبنـــه ... وعمها خالها قـــوداء شـــمليل [٢]

يمشى القراد عليها ثـــم يزلقـــه ... منها لبـــان وأقـــراب زهـــاليل [٣]

عيرانه قذفت فى اللحم عن عـــرض ... مرفقها عن بنات الزور مفتـــول [٤]

كأن ما فات عينيـــها ومذبحـــها ... من خطمها ومن اللحيين برطيل [٥]

تمر مثل عسيب النخل ذا خصـــل ... فى غارز لم تخونـــه الأحـــاليل [٦]

قنواء فى حريتها للبصـــير بـــها ... عتق مبين وفى الخدين تســـهيل [٧]

تخذى على يسرات وهى لاحقـــة ... ذوابل وقعـــهن الأرض تحليـــل [٨]

سمر العجايات يتركن الحصى زيمـــا ... لم يقهن رؤوس الأكـــم تنعيـــل [٩]

كأن أوب ذراعيها وقـــد عرفـــت ... وقد تلفع بـــالقور العســـاقيل [١٠]

---

(١) أطوم : سلحفاة غليظة الجلد ، والمراد وصف جلدها بالمتانة - يؤنسه : يؤثر فيه ويليته - المتنين الجـــانبين المحيطين بالصلب من الظهر - مهزول : نحيف غير سمين .

(٢) الحرف : الناقة النحيفة أو الضامرة من العظم - وأخوها أبوها : حكم على الحقيقة بمعنى أن تلد الناقـــة ثم يكبر فيحمل عليها فتلد ناقة فيكون أخو الناقة الأخيرة هو أباها ، والناقة الكبيرة أمهما - الهجان : البيـــض الكرائم من الإبل

(٣) القراد : دوية معروفة تلتصق بأجسام البهائم وتؤذيها يمص دمها - يزلقها : مضارع زلقه إذا أبعدها ونحـــاه عن مكانه - اللبان : الصدر أو وسطه أو ما بين الثديين - الإقراب :جمع قرب - يضم القاف والراء -وهـــو الخاصرة - الزهاليل :جمع زهلول ،وهو الناعم الأملس.

(٤) العيرانة :قال (صاحب القاموس) هى الناقة الناجية فى نشاط أى السريعة فى السير ، والعير حمار الوحش - فى اللحم : لم تحلب فهى كاملة الجسم من عدم الحلب - العرض (بضم العين والراء) الجـــانب - المرفـــق : موصل الزراع فى العضد - بنات الزور : علضلنا العضدين - والزور عظام الصدر - مفتول :مدمج محكم .

(٥) ما فات : ما جاوز - المذبح : المنحر - الخطم : من الدابة مقدم أنفها وفمها - اللحيان : منبتا اللحية علـــى الجانبين - والبراطيل :حجرا وحديد صلب ، ومن معانيها المعول .

(٦) تمر : تنقد - العسيب : الجريدة المستقيمة الخالية الخوص - الخصل :جمع خصلة وهى الشـــعر المتجمـــع . والمراد ذيلها ، الغارز : الضرع - الأحاليل جمع أحليل وهو الثقب ، يريد أنها لم تلد .

(٧) القنواء : التى فى أنفها حديدب فى الوسط وأرتفاع فى الأعلى - الحرثان : الأذنان أو ما بين الأذنـــين مـــن الخلف - البصير : الخبير - عتق : كرم -وعتق الأذنين : أن يكون طرفاهما محددين - التسهيل : قلة اللحم .

(٨) تخذى : مضارع خدى يخدى كرمى أوسار مسرعا - اليسارت : القوائم الخفاف مفردها يسرة - ولاحقة : ضامرة غير منتفخة -وقعهن : إصابتهن الأرض وتمزيقهن لها- تحليل : خروج من الحرج والمراد أنها لا تكـــاد تمس الأرض إلا من باب القلة لا أكثر .

(٩) سمر : أى لونها السمرة وهى مترلة بين البياض والسواد - العجايات :العجاية هى عصـــب مركـــب فيـــه فصوص من عظام كفصوص الخاتم : زيما :متفرقة - الأكم :جمع أكمة وهى الهضبة من الحجارة - التنعيـــل : الباس النعل وهو ما وقيت به القدم من أذى الأرض .

(١٠) الأوب : رجع القوائم فى السير- القور جمع قاره وهى الجبيل الصغير ، أو الصخرة العظيمة أو السوداء - العساقيل ؛ جمع عسقول وهو السراب أو القطعة من السحاب .

يوما تظل حداب الأرض يرفعـــها ... من اللوامـــع تخليـــط وتزييـــل [١]

يوما يظل به الحرباء مصطخمـــا ... كأن ضاحيـــه بالنـــار ممـلـــول [٢]

وقال للقوم حاديهم وقـــد جعلـــت ... ورق الجنادب يركضن الحصى قيلـــوا [٣]

شد النهار ذراعا عيطـــل نصـــف ... قامت قجاوبـــها نكـــد مثـــاكيل [٤]

نواحه رخوة الضبعين ليس لـــها ... لما نعى بكرها الناعون معقـــول [٥]

تغرى اللبان بكفيـــها ومدرعـــها ... مشقق عن تراقيـــها رعـــابيل [٦]

---

[١] يوماً ظرف لـــ" أوب " أو لـــ " تلفح " وفيه تضمين وهو منعوب الشعر – حداب : جمع حدب والمراد به – هنا –المرتفع الغليظ من الأرض – اللوامع :جمع لامعة وهى الفلاة يلمع فيها السراب .

ومعنى يرفعها : يزيدها ارتفاعاً فى نظر العين – والتخليط : الجمع – التزييل : أى التفريق

[٢] الحرباء : حيوان معروف يتلقى الشمس ويدور معها أينما دارت ويتلون بحدها –مصطخماً : منتصباً واقفـــاً أى مصطلياً بحر الشمس .

[٣] الحادى : هو الزاجر والسائق للإبل . جعلت : أخذت وشرعت – الورق : مختلطـــة فى لونهـــا بالبيـــاض والسواد – الجنادب : جمع " جندب " وهو جراد معروف – يركضن : يدفعن ويحركن – قيلوا :اســـتراح وقت الحر الشديد .

[٤] شد النهار : أى أرتفاعه أو طوله ، ونصبه على الظرفية للفعل " قيلوا و " ذراعاً " خبر كان فى البيـــت . (٢) .

– العيطل : الطويلة العنق فى حسن جسم – والنصف :المرأة المتوسطة فى السن – وقامت المرأة تنوح : انتصب – جوابها: فعلن فعلها – نكد :جمع أنكد ونكداء ، وهى من عيشها إذاأشد وعسر ، والأنكد هوالشؤم العسر – المثاكيل : جمع مثاكل وهى التى لزمها الثكل ، وهى التى فقدت حبيبها ، أو ولدها .

[٥] نواحة : كثيرة النوح والنواح – رخوة : لينه هشة – الضبعان : العضدان أو الأبطان –معقول :عقل .

[٦] تغرى : تشق – اللبان : الصدر وما حوله – والمدرع :هو ثوب من صوف – والتراقى :جمع " ترقوة "وهمـــا العظمتان البارزتان فى مقدم الحلق بأعلى الصدر – الرعابيل : الثوب الخلق ، والمـــراد أن مدرعتـــها ممزقـــة مقطعة.

الخاتمة

وبعـــد :

لعل من النتائج التى خرجت بها تلك الدراسة أن لكـــل شـــاعر مـــن هذيـــن الشاعرين اللذين سبق الحديث عنهما شخصية يتميز عن غيره ، وذاتاً يســـتقل بـــها بين اقرانه ؛ بحيث لا نستطيع القول بأن كعب كان صورة مكررة لطرفة ، أو طرفـــة كان ظلاً لكعب .. ودراسة أبياتهما فى وصف الناقة كانت عبارة عن وســـيلة تؤكـــد غاية ، وتدل عليها ، فنفس كل شاعر منهما وعاطفته وتجاربه وقضاياه التى تشـــغل حياته – وقتئذ – كانت بارزة بروزاً واضحاً من خلال نتاجه الشـــعرى فـــى وصفـــه للناقة .

ولقد وجدت كيف يختلف الشاعران فى المعانى والأساليب ، ويتمايزان فـــى الصور والخيال وتجئ ألفاظ كل منهما وتراكيبه من نمط خاص به ، مع أنـــهما كانـــا يعيشان حياة متقاربة (أى من النواحى البيئية) وأن لكل منهما فلسفة خاصة بـــها ، فطرفة يميل إلى اللذات ، والعربدة .. وينهج منهج الفلسفة الوجودية ، وفـــى نفـــس الوقت يسيطر عليه الهم والخوف فيفرج عنه بناقته .

وكعب يبلغه أنه مقتول لا محالة ، فتسيطر على نفســـه حالـــة مـــن الذعـــر والخوف ، فدمه مسفوك لا محالة ، فيلجأ إلى ناقة قوية ليبلغ بـــها أرض محبوبتـــه سعاد ثم يعود بها إلى مجلس الرسول -ﷺ- ويستعطفه بأبيات خالدة.

وربما تزداد هذا المسألة وضوحاً ووثوقاً إذا علمت باكورة حياة . كل منـــهما مما يجعلك تسلم بالفوارق الشعرية بينهما ، وتسلم – أيضـــاً – بمـــا وصلنـــا إليـــه واستنتجناه .

بعد فإننى لم اقصد من وراء هذا الموازنة الاستقراء والاستقصاء ،وإنما الذى قصدته هو أن أنال رشفة من هذا البحر ، وأمتع بها الخاطر والنفس ،واسعد بها الفكر والخيال .

وأطبق عليها بعض المعايير النقدية الحديثة ، لتخرج إلى الناس درة من المرجان غير معلقة بالشوائب .

ولست أجهل أن المدى الذى بلغته فى محاولتى محدود بطاقتى وجهدى ، ولكن حسبى أنى اجتهدت ،وعنيت بإخراجهما إخراجاً جديداً علمياً يليق بمكانة الشاعرين .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير

أهم المراجع التى طالعناها عند إعداد هذه الموازنة :-

١- الأدب فى قبيلة إياد العدنانية ، د. إحسان النص – (بدون ذكر طبعة) .

٢- الأدب والنصوص فى العصرين الجاهلى وصدر الإسلام ، د. محمد محمد خليفة ، ط. الأميرية (القاهرة) ١٩٨١م.

٣- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر ، ط. دار الغد العربى .

٤- الأعلام : لخير الدين الزركلى ، ط. دار العلم للملايين (بيروت) ،الطبعة التاسعة ١٩٩٠م .

٥- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى – ط . الدار التونسية للنشر (تونس) .

٦- البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة .

٧- تاريخ الأدب العربى ، (العصر الإسلامى) ، د. شوقى ضيف ،دار المعارف بمصر .

٨- تاريخ الأدب العربى ، لأحمد حسن الزيات – ط. دار العلم للملايين .

٩- تاريخ الأدب العربى : د. عمر فروخ .دار العلم للملايين – الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

١٠- تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعى ، مكتبة الإيمان بالمنصورة – الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

١١- التصوير الفنى فى شعر محمود حسن إسماعيل د. مصطفى السعدنى ، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية .

١٢- التفسير النفسى للأدب – د. عز الدين إسماعيل – دار العودة ودار الثقافة بيروت – لبنان .

١٣- جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام : أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ، ط. دار صادر – بيروت .

١٤- حديث الأربعاء –د. طه حسين . ط . دار المعارف ، وطبعة مكتبة الأسرة (حسب ما ذكر بالهامش) .

١٥- حياة الحيوان الكبرى للشيخ / كمال الدين الدميرى . وبحاشيه عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد القزوينى – دار إحياء التراث العربى – بيروت (لبنان) .

١٦- خزانة الأدب : عبد القادر بن عمر البغدادى ، ط. بولاق ١٢٩٩هـ .

١٧- خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة ، محمد صادق حسن عبدالله ط. دار الفكر العربى .

١٨- دائرة المعارف الإسلامية (أصدرت بالألمانيـــة والإنجليزيـــة والفرنســية) ويصدرها باللغة العربية – أحمد الشنتناوى – إبراهيم زكى خورشـــيد – عبـــد الحميد يونس ، ط. دار الفكر .

١٩- دراسات فى الأدب الجاهلى : د. محمد عرفة المغربى (بدون ذكر طبعة) .

٢٠- دراسة فى البلاغة والشعر – د. محمد محمد ابو موسى .

٢١- ديوان زهير بن أبى سلمى – شرح ديوان زهير – للإمام أبى العباسى أحمد بن يحيى ابن زيد الشيبانى – ط. دار صادر – بيروت .

٢٢- ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشنتمرى (يوسف بن ســليمان) ط. دار صادر – بيروت ١٣٨٠هـ- ١٩٦٢م .

٢٣- ديوان كعب بن زهير ، ط. دار الكتب ١٩٥٠م .

٢٤- رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى – تحقيق : د. عائشة عبد الرحمن (بنـت الشاطئ) ط. دار المعارف .

٢٥- السيرة النبوية للابن هاشم – تحقيق : الشيخ محمـــد بيومـــى ، ط. مكتبـــة افيمان بالمنصورة .

٢٦- شرح ديوان كعب بن زهير للسكرى – تحقيق : عبد العزيز اليمنى ، ط. دار الكتب بالقاهرة ١٣٥٩هـ = ١٩٥٠م .

٢٧- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبـــارى تحقيق وتعليق : عبدالسلام محمد هارون –ط . دار المعارف بمصر – الطبعـــة الثانية .

٢٨- شروح قصيدة " بانت سعاد " لأبى محمد عبد الله بن يوسف بن هاشـــم ، ط. حسن مصطفى بالقاهرة ١٢٩٠م .

٢٩- شعر الطبيعة فى الأدب العربى . د. سيد نوفل –دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية .

٣٠- شرح القصائد السبع للزوزنى (ابى عبد الله الحسين بن أحمد) –ط. دار الجبل بيروت – لبنان .

٣١- الشعر والشعراء : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

٣٢- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور : د. شوقى ضيف (مكتبة الدراسات الأدبية) دار المعارف – الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

٣٣- شعراء النصرانية فى الجاهلية – لويس شيخو – مكتب الآداب – القاهرة ١٩٨٢م .

٣٤- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه : يحيى الجبورى – دار النهضة (بغداد) ١٩٦٤م .

٣٥- الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ، د. محمد النويهى الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة .

٣٦- الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى ، د. جابر عصفور – دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٤م.

٣٧- طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمعى ، شرحه : محمود شاكر ،ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٣٨- الطليعة الأدبية (مجلة) تصدر ببغداد .

٣٩- العقد الفريد : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (٢٤٦-٣٢٨هـ) ط. دار الكتب اللبنانية (بيروت) .

٤٠- العمدة فى صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيروانى الطبعة الأولى- القاهرة ١٩٢٥م.

٤١- فصول (مجلة) .

٤٢- فى النقد الأدبى : د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف بمصر .

٤٣- فى تاريخ الأدب الجاهلى : د. على الجندى – مكتبة الشباب .

٤٤- فى الأدب الجاهلى : د,. طه حسين .

٤٥- فى مرآة الشعر الجاهلى (دراسة فنية تحليلية مقارنة) دكتور : فتحى أحمد عامر ،منشأة المعارف بالإسكندرية .

٤٦- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادى ، ط. دار الحديث (القاهرة).

٤٧- قراءة فى الأدب القديم :د. محمد محمد أبو موسى –دار الفكر العربى – الطبعة الأولى ١٩٧٨م .

٤٨- القيان والغناء فى العصر الجاهلى : ناصر الدين الأسد ، ط.دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٦٨م .

٤٩- اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد – مكتبة الأنجلو المصرية .

٥٠- المخصص : لبى الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى – المعروف بابن سيده – دار الكتاب الإسلامى القاهرة .

٥١- موسيقى الشعر : د. إبراهيم أنيس – مكتبة الأنجلو المصرية (مصر) ١٩٧٢ .

٥٢- مديح الرسول فى فجر الإسلام : صلاح عيد – دار المعرفة القاهرة .

٥٣- مصادر الأدب الجاهلى وقيمتها التاريخية : نـــاصر الديـــن الأســـد ، ط. دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٦٦م .

٥٤- معالم النقد الأدبى : د. مصطفى الصادق الجوينى ، الناشر منشأة المعـــارف بالإسكندرية .

٥٥- المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، للتبريزى ط. صبيح .

٥٦- المفضليات : المفضل بن محمد بن يعلى الضبى ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ط. دار المعارف – الطبعة الثالثة .

٥٧- المنتخب فى آداب العرب : د. طه حسين وزملائه .

٥٨- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى – لأبى القاسم الحســـن بـــن بشـــر الآمدى ، تحقيق : د. عبد الله محمد محارب – مكتبـــة الخـــانجى بالقـــاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٠هـــ/١٩٩٠م .

٥٩- الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية : د. فاطمـــة محجـــوب ، ط. دار الغـــد العربى (مازالت تصدر) .

٦٠- النقد الأدبى (أصوله ومناهجه) : سيد قطب ، دار الفكر العربى – الطبعـــة الثالثة ١٩٦٠م .

٦١- نقد الشعر : قدامه بن جعفر – تحقيق وتعليق الدكتور / محمد عبد المنعـــم خفاجى – دار الكتب العلمية " بيروت – لبنان .

٦٢- الوصف (فنون الأدب العربى) سامى الدهان – دار المعـــارف – الطبعـــة الثالثة .